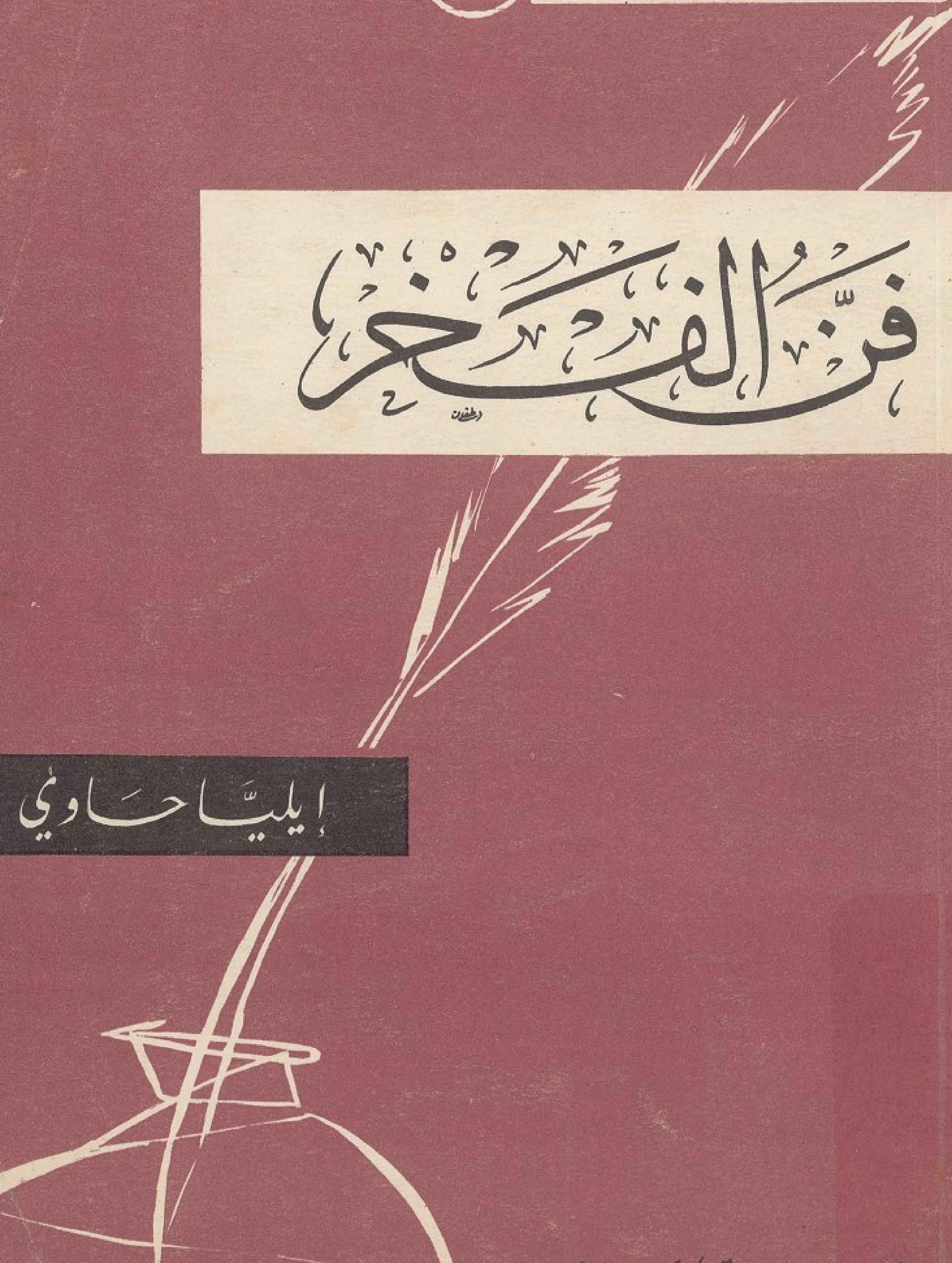
الفنون الأدبية عند العرب

٨

فن الفخر

إيليا حاوي



منشورات دار الشرق الجديد - بيروت

الفنون الأدبية عند العرب

٨

فن الفخر

إيليا حاوي

فن الفخر

وتطوره في الأدب العربي

منشورات دار الشرق الجديد

الطبعة الاولى
حزيران (يونيه) ١٩٦٠

المقدمة

علاقة الفخر بالهجاء

لو نظرنا الى طبيعة التجربة الشعرية لتحقق لنا أنهـــا على اختلاف وجوهها ، تعبير عن تنازع الوجود وتحقيق الذات. فاذا ما فشل الانسان ، وامتنع عليه تحقيق المثُل التي يتوق اليها، فان السويداء تستبد به ، وتوري فيه حساً حاداً بالأسى والفجيعة والبؤس ، وتتعقد نفسه ، فتتولد من ذلك كله ، التجربة الشعرية التي تعبر عن سويداء الوجود . واذا ما قدر للمرء ان ينتصر على العقبات التي تعترض سبيله ووفق في تحقيق مثله ومطامعه ، فان ذلك يوري لديه شعوراً بالزهو والغبطة ، واحياناً بالعظمة والبطولة ، وخاصة اذا كان بدائياً ، مما يولد لديه تجربة شعرية تناقض التجربة الأولى ، متحدّثه عن عنجهية النفس وادعائها وعتوها . وهكذا ، فان الشعر ، هو تعبير عن واقع الانسان ، منتصراً أو مخذولاً ، مغتبطاً ، أو متحسراً ، الى ما هنالك من احوال تتولد كنتائج حتمية مبرمة في النفس بتأثير البواعث والحوادث الخارجية والداخلية . لا شك ان تأثير البواعث

الخارجية يختلف بالنسبة للشخص الذي يعانيها ، كما ان التجربة ذاتها التي تتولد من البواعث تختلف عمقاً وتعقداً بالنسبة لثقافة الشخص ومضاعفاته الوجدانية ، الا ان هذا الاختلاف لا يعدو ان يكون وليد مبدأ جوهري عام دائم ، هو تنازع البقاء ، ومعاناة المصير ، اكان مادياً في تأمين لقمة العيش ، أو معنوياً في الولوج الى أسرار الكون وفض لغزه ، أو اكتشاف حقائقه المستورة . لهذا فان الفخر هو تعبير عن الناحية الايجابية من مصير الانسان ، انه تعبير عن النصر ، والتكافؤ ، والشعور بالرضا عن النفس وعن الوجود . لاشك انه ، ثمة ، نوع من الفخر الذي يغلب عليه التعقيد إذ يوهم بالانتصار بينا يكون في الواقع تنكراً للشعور بالفشل والهزيمة . فالانسان عندما يستبد به الشعور بالضعة والفشل يثور على هذا الشعور ، فتتولد في نفسه ، حالة من العنجهية . الا ان الميزة الغالبة للشعور الفخري هي التعبير عن غبطة النفس وزهوّها ، اثر الانتصار ، او شعورها بالتفوق والقدرة .

هذا عن واقع الفخر عامّة . واذا ما تحرّينا عن واقعه في الشعر الجاهلي ، فانه يتحقق لنا ان طبيعة ذلك العصر ، كانت توافق طبيعة الشعر الفخري أو بالأحرى كانت تلزم الشاعر بها. لقد كانت حياة الجاهليين حياة حروب، وغزوات لا هوادة فيها في سبيل العيش . فهم ابداً بين كرٍّ وفرٍّ ، وفي توقُّع دائم للغارات . وذلك جميعاً ، أدى الى ازدهار الفروسية . فالانسان لا يعْظُم في بني قومه ، إلا اذا كان قويّ الشكيمة ، قادراً في

الحروب يصدُّ عن نفسه وعن قومه غاراتِ الأعداء . لهذا كان من الطبيعي أن تكثر قصائد الفخر في الشعر الجاهلي لأن الفخر ليس ،في الواقع ، سوى وسيلةٍ للدفاع عن النفس كالسيف . وهو في الآن ذاته ، وسيلةٌ من وسائل الدعاية التي تمجد فضائـــل الفروسية . فالشعر تعبيرٌ عن البيئة . اذا كانت البيئة حربيةً ، كان الشعر شعراً فخرياً . لهذا نرى ان الملاحم تكثر في البيئات البدائية التي تمجِّد البطولة ، وحيث يكسب الانسان قوته من الغزو والحروب .

ومهما يكن ، فان طبيعة البدائي تُحِبُّ الانفعالات العنيفة ، وتطرب للمشاهد المروِّعة الهائلة . وليس الفخر سوى تجسيـد وتمثيل لتلك المشاهد عبر اللفظ . وبقدر ما يوغـل الانسان في البداوة ، بقدر ذلك تشتدُّ نزعة الفخر في شعره . فالبدائي لا ينظر الى الاشياء نظرة منطقية ، بل يطفر في شعور حـادٍّ ، كثير الصخب والجلبة ، يولد لديه المعاني الهائلة ، الخارقة التي تغلب على شعر الفخر . ولعلنا نتبين ذلك في مظاهر حياتـه كافة . فهو اذا ما فجع بموت نسيب او قريب ، فانه لا ينفك يعول ، ويصيح ، مكثراً من الضوضاء ، التي توافق ما في نفسه من ميول الإنفعالات العنيفة . وتكاد أَفراحـــه لا تختلف عن أَحزانه . وكذلك لباسه، فانه لا ينتقيه إلا من الألوان الساطعة الكثيرة الانفجار والاحمرار ، كما ان مآكله هي بصورة عامـة مآكل دسمة . وذلك جميعاً يتولد من طبيعة نفسه البدائية . لهذا نرى ان الفخر يوشك ان ينقرض في البيئات الحضرية المتمدِّنة ،

لان الحضري ، ينظر الى الوجود بتعقُّل ورويَّة ، ولا تعود عينه مندهشة تنظر الى الاشياء من خلال زجاجة مكبرة، أسطورية .

ونكاد لا نشهد موضوعاً من موضوعات الشعر الجاهلي ، حتى يكون موضوع فخر وتشاوف. يبدو ذلك حيناً، بصورة سافرة مباشرة . وحيناً آخر بصورة غير مباشرة وليس ما نذُكره من انواع أدبيَّة عامة ، كالشعر الخمري او الوصفي ، والغزلي ، سوى مَظاهر ووجوه مُختلفة لنزعة التفاخر التي تستبد به وتسيطر على تصرُّفه ومصيره. فإذا شرب الخمرة يصوِّرها لنا في أجمل صورة. فهي تَتألق وتشُع كالشمس ، وتتضوع بالطيب كالمسك ، وتغشى النفس بالنشوة، والغيبوبة حتى الاحتضار والموت ، كما أنها معتقة ربيبة الزمن. ولا يكتفي بان يغالي بوصفها، هي بالذات، بل يغالي بكل مايتصل بها، كالكأس، والدِّن، والساقي، والمغنين. وهكذا يخيل إلينا ، اثرئذ، ان هذه الخمر ، هي خمر كاملة ، لا يمكن للمرء ان يعثر على خمر أفضل منها. والجاهلي لا يفتخر بالخمر التي يشربها، وبما يتصل بها وحسب ، بل نراه يفتخر بشرب الخمر ، متخذاً منه مظهراً للترف ، والاعتداد بالنفس . قال عنترة :

ولقد شربت من المُدامَة بَعْدَما
رَكَدَ الهَواجِرُ بالمشوف المُعلمِ
فإذا شربتُ ، فإنني مُستهلك مالي
وعرضي وَافِر لم يُكلَم
وإذا صَحوتُ ،فما أُقصرُ عن نَدَى
وَكما عَلِمتِ شمائِلي وتكرُّمي

انت ترى أن الشاعر يفتخر بشربه للخمرة بحد ذاته ، كأنه غدا فضيلةً من فضائل الفروسية . ونرى ذلك أيضاً في شعر لبيد اذ قال .

بل أنت لا تَدْرِين كمْ من ليلةٍ
طلقٍ ، لذيذ لهوهُا ونِدامُها
قد بتُّ سامرها ، وغاية تاجرٍ
وافيتُ اذ رُفعتْ وعزَّ مُدامُها

وكذلك الامر في الغزل الجـــاهلي . فالشاعر لا يلتفت الى حبيبتة معبراً عمَّا يعانيه من تعقــد ولبس في حبها وتحت وطأة جمالها ، بل نراه يلتفت إليها من الخارج، او بالأحرى ، لايلتفت اليها بالذات ، بل ينشىء من ذهنـــه صوره مثاليـــة ، ترسم حبيبتَه كمثال أعلى للجمال ، فكأنه يتفاخر بها على حبيبات سائر الشعراء . فوجهها يسطع ويشعُّ كالشّمس ، وشعرهــا متجعّد كَعُثْكُول النخيل ، وعيناها كَعينَي الريم ، وثغرُها كثغر الأُقحوان ، وأسنانها كالبرَد ، ورضابُها كالخمْرة، إلى ما هنالك من أوصاف نموذجيَّة ينسبها الى حبيبته ، مفتخراً بنفسه من خلالها .

أما الوصف ، فهو أيضاً مظهر من مظاهر ملحمة الفخر التي لا تنفكُّ تطالعُنا في الشعر الجاهلي . فاذا وصف الشاعر ناقَتَه أو فرسه ، فإنه يضفي عليها صِفَةَ الكمال التي سبق ان أضفاها على الخمر التي يشربها والمرأة التي يحبُّها . وهو لا يُعتم ان يشبّهها بالبقرة الوحشية او بالثور الوحشي ، متفاخراً بسرعة عدوِها ،

وقدرتها على اجتياز المسافات الشاسعة . وقد نتوهم ، حينئذ ، ان الجاهلي يصف للوصف ، الا اننا نتقصّى واقع الاشياء يتحقق لنا ان وصفه وصف مفاخرة وغلوٍّ ينعم فيه بتمثيل المثال الاعلى للاشياء ليفتخر بنفسه من خلالها . أولم يصف النابغة ناقَتَه ، ويشبِّهها بالثور الوحشي بأبيات عديدة ليردِفَ بعدئذ بقوله :

فتلكَ تُوصِلُني الى النّعْمان ، إن له
فضلاً على الناس في المَثْنى وفي الأحدِ

ذلك جميعاً يدلنا على ان الفخر غلب على الشعر الجاهلي بالزام من واقع البيئة التي تقوم على التنازع والتغازي ، وبالزام من واقع النفسيَّة البدائية التي تميل الى الانفعالات العنيفة ، والانفجار والصخب . لذلك ، فانه لا قبل لنا بتخصيص شاعر من الشعراء الجاهليين بالفخر من دون سواه ، لأنهم جميعاً ، ألموا به في قصائدهم . إلا أننا بالرغم من ذلك سنعرض لدراسة بعض الشعراء من دون سواهم ، وذلك لان نزعة الفخر ظهرت في شعرهم بصورة أجلى مما ظهرت في شعر الآخرين . وقد رأينا ان نتولى شعر الشنفرى كنموذج للفخر في شعر الصعاليك ، وشعر طرفة للفخر الوجودي وشعر عمرو بن كلثوم وعنترة ، كنموذج للفخر الملحمي .

الفخر في شعر الشنفرى

لقد كان الصعاليك جماعة من شذاذ العرب الذين خلعتهم قبائلهم ، خوفاً من جريرة أعمالهم وجرائمهم . وكان هؤلاء

يعيشون في الفلاة والقفار، ويغيرون على الاحياء الآهلة في الليل، حيث يُروِّعون النـــاس، فيغنمون رزقهم، ويعودون الى المفاوز والدويات الموحشة التي يسكنونها. ولقد كان الشنفرى احد هؤلاء الصعاليك بعد ان انفصل عن اوليـــائه بني سلامان الذين كانوا قد استعبدوه واقسم ان يقتـل منهم مئة رجل.

اما شعره فقد ظهر خاصـــة في اللاميَّة التي عرفت بلاميَّة العرب وفيها دلائل واضحة على آرائه ونظرته الى الحياة، والفضائل التي ما انفك يتفاخر بها.

اللاميَّة

يذكر الشنفرى في مستهل اللامية رحيله عن بني قومه، لأن الكريم لا يقيم في قوم يُؤذونه. فهو يريد أن يعيش مع السَبُع البريَّة، لانها لا تذيع له سراً ولا تعاقبه وتخـذله بجناياته. ثم ينصرف الى التفاخر بالفضائل التي يتحلى بها، فيقول إنه، إذا ما مدَّت الايدي الى الزاد، فانه لا يتعجّل الأكل، لانه ليس جَشِعاً، كما انه يحب ان يتفضل على الآخرين. أما أصحابه فهم ثلاثة: قلب قوي وسيف حاد وقوس هتوف، تعول عندما يزل عنها السَهم. ومن ثم ينصرف الشاعر الى وصف عزة نفسه بقوله:

أُدِيمُ مِطـــالَ الجوعِ حتى أُميتُه

وأَضربُ عنه الذكْرَ صفحاً، فأذْهَلُ

وأستَفُّ تربَ الأرض كي لا يُرى له
عــليَّ من الطول ، امرؤ متطوّلُ [١]
وأطوي على الخُمْص الحوايا كما انْطَوَت
خيُوطة ماريٍّ تُغارُ وتُفتَلُ [٢]

فالشاعر اذ يلمُّ به الجوع ، يماطله ، ويحاول ان يذهل عنه ، حتى إذا ألحّ به وأعياه ، فانه يستف تراب الارض دون أن يستعطي من الناس ، لئلا يتطاولوا عليه ويخزوه . ولعل البيت الثاني من هذه الابيات يدل في براءة الشعور وعفويتـــه ، على أصدق تمثيل يمكن ان تمثّل به أنفة النفس . فالشنفرى لا يدع نفسه تنقاد لغرائزها وميولها ، بل يجالدهـا ، ويثقفهـا ، ويحدُّ منها . فهو لا يأكل الطعام بالرغم من الجوع الذي يكاد ان يُتلِفه ، اذا لم يكن ذلك الطعام كريماً . وهو يفضّل الحرمان والتضوّر على الذلّ . وبذلك تغدو بطولة الشنفرى بطولة نفسيّة ، بطولة نفسه على ذاتها . ولقد بدا ذلك أيضاً في قوله :

فإمّا تَرَيني كأبنة الرمل ضاحياً
على رِقة أحفى ولا أتنعّلُ [١]

١ ـ سف الدواء واستفه : اخذه . اجول في الفلوات وابتاع غبارها كي لا يرى رجل متكبر ان له علي فضلا وامتنانا

٢ ـ الخمص : الجوع ، والخمص : ضمور البطن . الحوايا : ج . حوية : مـا يحوي البطن ، المعى . الخيوطة : ج . خيط . والتاء تدل على كثرة الجمع . ماري : اسم فاتل الخيوط . اغار الحبل : احكم فتله . اشد امعائي على الجوع فأطويها ، كما يطوي الفاتل خيوطاً يفتلها ويحكم برمها .

٣ ـ ابنة الرمل : الحية . الضاحي : البارح للحر او للبرد . الرقة : اسوء العيش .

فإني لَمولى الصبْر أجتابُ بره
على مثل قلب السمع والحزم انعلُ ١

ويومٍ من الشِعرى يذوبُ لعابه
أفاعيه في رمضائه تتَمَلمَلُ

نصبتُ له وَجهي ولا كِنّ دونه
ولا ستر إلا الأتحمي المُرَعْبَلُ

لا شك ان الفضائل التي يفتخر بها ، هي فضائل جاهليّة ، تولدت من واقع البيئة ، إلا اننا نَشهدُ فيها وجه الانسان المطلق الذي لا بيئة ، ولا زمان له ، لانها تمثل صراع الانسان مع نفسه ومع من يعايشهم ، في سبيل تحقيق ذاته وصيانة كرامته وعزة نفسه .

وهذا الفخر الذي تقوم فيه البطولة على التنازع الداخلي نراه في شعر الصعاليك بصورة عامة كتأبط شرا وعروة بن الورد.

---

١ ـ مولى الصبر : وليه . اجتاب : اكتسي . ١ . البز : الثوب . السمع : ولد الذئب . يخاطب ، في البيتين ، ابنة الحي فيقول : ان رأيتني كحية ابرز للانواء على رقة حال ، وانا حافي الرجلين لا نعل في قدمي ؛ فأنا مع ذلك حليف الصبر ألبس ثوبه على قلب شجاع كقلب السمع ، وحذائي الحزم . والمراد اني بالصبر اتصرف فيه كما اريد ، واحتذي الحزم كأني قاهر له .

الفخر في شعر عنترة

ولد عنترة من أمة حبشية ، سوداء سباها أبوه في إحدى غزواته ، فأتى عنترة اسود اللون ، بل مسرفاً في السواد ، حتى عُدَّ من اغربة العرب . وكان العرب ينكرون اولادهم الذين يولدون من الاماء ، ويستعبدونهم ، من دون إخوتهم الذين يولدون من الحرائر . وهكذا ، فان عنتر أفاق على الحياة ، والقوم ينظرون اليه نظرة احتقار ، يستصغرون قدره ، ويضائلون من شأنه ، لانه ابن امة سوداء . ولعل هذا المصير كان طبيعياً ، عصرئذ . فثمة كثير من الغلمان الذين لم يعترف بهم آباؤهم ، وقد كانوا يقبلون الحياة التي قسمت لهم باستسلام ورضى. أما عنترة فكان يشعر في اعماق وجدانه ، انه متفوق على الذين يحتقرونه ، ولا فضيلة لهم عليه ، الا فضيلة اللون والأصل . ولقد اذكى ذلك في نفسه شعوراً حاداً بالتخاذل والبؤس ، لم يطقه الشاعر ، فنهض للتحرر منه . وربما تضاعف هذا الشعور في حبه لابنة عمه عبلة . وبقدر ما كان ذلك الحب يشتد ويستعر في نفسه ، بقدر ذلك ، كان شعوره بالنقص والهزيمة يشتد ايضاً ،

خاصة بعد ان ابى عمه تزويجها له . لهـــذا ، فان بطولة عنترة ومآتيه الخارقة لم تكن للبطولة ، بقدر ما كانت في سبيـــل استثارة اعجاب عبـــلة وارغام ابيه على الاعتراف به وعمه على تزويجه ابنته . ولقد لبثت نفسه تدور في دوّامة من البؤس ، يكاد لا يشرق في نفسه أمل ، حتى ينطفيء ، وتظلم نفسه بالأسى من جديد . فعمُّه وأبوه يعدانه بكل ما يريـــد عندما يلمُّ بهم الاعداء ويوشكون على الانهزام ، لكنهم لا يعتمون ان يخلفوا وعدهم ، بعد أن ينجوا وتستقر أحوالهم . ذلـك ان بني عبس كانوا في حروب دائمة مع بني عامر وبني ذبيان . وكانوا بحاجـة لساعد عنترة في الدفاع عنهم وكان يعز عليهم ، في الآن ذاته ، ان يعترفوا به ويساووه بابناء الحرائر .

ولقد درج العامة على اللهو والزهو بسيرة عنترة معجبـــين ببطولته وإقدامه ، الا انه وراء ذلك الوجه الاسطوري الهائل المروع ، كانت تحيا فجيعة صامتة ، موحشة لا تنفـــك تتسعر وتتآكل . انها مأساة الانسان الذي يقدم الى هذا العالم ، فيشقى بذنب لم تقترفه يداه وليس له فيه جريرة . يضرس بالحصرم الذي أكله أبوه ، ويكفر عن خطيئة لم ترتكبها يداه . فمشكلة عنترة ولدت معه ، انها في دمه وفي لونه ، لا يقوى على الهرب والتحرر منها . لقد كانت ملتصقة به ، ملازمة لواقعه . فلو اتهمه الناس بالجبن لاستطاع ان يزيل تلك التهمة بأعمال البطولة . ولو كان يعاب بالفقر ، لكان بامكانه ان يكد في سبيل الغنى ، الا انـــه يعاب لولادته من أمة وللون وجهه ، وهذان أمران ، لا قبل له

بتغييرهما . وهكذا تغدو مشكلة عنترة التي يتلهى بهـا القوم ويأنسون لها ، تغدو وجهاً مما ندعوه في عصرنا مـأساة وجودية. إنها مأساة سيزيف الذي يحمل الصخرة من السفـح الى ذروة الجبل ، وهو يدرك في أعماقه انها سوف تدحرج من جديد الى السفح. فعنترة كان يحاول دائماً، ان يتحرر من وطأة الصخرة التي وضعها القدر على منكبيه ، منذ ان أبصر نور الشمس ، ويكاد لا ينفذ بهـا الى الذروة ، ويتوهم انـه تحرر منهـا ، حتى يرى نفسه من جديد في السفح والصخرة تربض من جديد امامـه . فهو بالرغم من حاجة القبيلة إليه ، كان يُقدَّر من خلال لونـه وأصله . أو لم يقل قيس بن زهير زعيم بني عبس ، بعـد ان أبلى عنترة بلاء حسناً في الأعداء وردهم عن قبيلته ، ألم يقل « ما حما الناس الا ابن الأمة . » وهكـذا ، فان عنترة كان يتذمر ، في الظاهر ، من أبيه وعمه وحبيبته ، الا أنّ تذمره ، في الواقع، كان أبعد منهم ، لقد كان يتصدى به للقدر ، والحياة اللذين أنعما على غيره دون استحقاق ، وقتّـرا عليه دون أن يذنب. فصراع عنترة كان مع نفسه ، لكنه ظهر في الخارج بشكل عبودية ولون اشخاص . ولا يذهبن بنا الظن أننا نقلـِّل من قيمة عنترة عندما نخلع عن وجهه ذلك القناع الاسطوري الذي ما برح يظهر بـه للشعب . ذلك قناع زائف ، مخادع، وتلك العظمة عظمة باطلة، ترضي محبي الطـُرَف والنوادر ، اما حقيقته ، فـكانت تتمثل في ذلك الصراع المكدود للانتصار على النقص الذي وصمـه به القدر ، والواقع الذي قيّدته به الحياة . ان بطولة عنـترة

ليست في ساعده ، بقدر ما هي في نفسه ، تلك النفس التي ترمز الى كبرياء إنسانية تسمو حتى أنها لتتحدى القدر .

شعره :

هذه الحالة النفسيّة هي في اصل ما نشهدُه في شعره من شدة في إظهار العظمة وقوة الساعد والتكافؤ . ان سعيه للتساوي بالآخرين ، ظل يسعى به حتى أدركهم ، وتخطّاهم ، وتحول مركّب النقص الى نقيض من الشعور بالعظمة والبطولة . لهذا فاننا نرى علماء النفس المعاصرين يحتفلون بذوي العاهات والنقص فكل ذي عاهة جبار . الا ان فخره لا يشتمل على ذلك التعقيد البعيد الجذور ، الذي يرتقي به الشاعر من مصيره الخاص حتى يشتمل على سائر المصائر البشرية ، بل يبوح بما يعانيه في كثير من البراءة والعفوية التي تصحب النفسية البدائية . فهو يخاطب حبيبته عبلة في معلقته بقوله :

إن تغدقي دوني القِناع ، فإنني   طَبٌّ بأخذ الفارس المُستَلئمِ
أثني عليّ بما عَلِمْتِ ، فإنني   سَمحٌ مخالقتي إذا لم أُظلم
فاذا ظُلمتُ فإن ظلمي باسلٌ   مرٌّ مذاقته كطعم العَلقَمِ

أنت ترى ان هذه الأبيات ليست من الفخر المباشر الصرف بل انها تمتزج بالغزل . فهو يفتخر أمام حبيبته . ويذكر لها قدرته في نزع الدرع عن الفارس ، فكيف بالملاءة التي تستتر دونه بها . ولقد بدا هذا التفاخر ساذجاً عفوياً ، ينم عن نفسية الشاعر ، وما فيها من زهو بتفوقه في البطش والعراك . الا انه لا يعتم ان

يستدرك قسوته مظهراً خلقه النبيل ، إذ يعترف لها بأنه لا يعتدي ، لكنه يدافع عن شرفه وكرامته ببسالة وبطش . وهذا الخُلق يدلُّ على خاصة هامَّة من خصائص الفروسية الجاهلية . فالبطل الحق ينبغي ان يكون لين العريكة مسالماً ، عادلاً .

وعنترة لا يفتخر بقدرته الجسدية وحسب ، بل بعاداته ، كشرب الخمرة ، والكرم ، والحفاظ على عفة النفس . ولقد كنا ألممنا بذلك في مطلع هذا الفصل ، الا ان هذا النوع من التفاخر لا يدل على واقع نفسه ، بل يعرض ، او يخطف خلال تلك الملحمة العظيمة التي لا ينفكُّ يدأب على بثّها والتهويل بها . وذلك يبدو خاصة في قوله :

هلاّ سألتِ الخيل يا ابنةَ مالكٍ إن كنتِ جاهلة بما لم تعلمي
يُخبركِ من شهِدَ الوقيعةَ أنني أغشى الوغى وأعفُّ عند المغنم

فالشاعر يستشهد الخيل على بطولته وذلك أشدُّ دلالة من استشهاد الجند او القوم . فعندما تعترف الخيل وتُقرُّ له ببطولته فذلك يعني ان شهرته ، تعدَّت الانسان الى الحيوان . الا ان عنترة لاينظم الشعر وفقاً لدُربة فنية ، ولا يُلمُّ بالهندسة والتطوّر ، حتى يكون البيت اللاحق نتيجةً للبيت السابق ، وتصاعداً بمعناه ، أو على الاقل استكمالاً له . ففي البيت الأول استخبر الخيل عن بطولته ، وفي البيت الثاني نراه يستخبر الجند ، منخفضاً بالمعنى السابق ، بعد ان أوفى به الى ذروة الغلوّ . وذلك ، جميعاً يدلنا على ان الشعر الجاهلي ، هو كالقصيدة الجاهلية : يسيطر عليه الفوضى والاضطراب ، متنقلاً من بيت الى آخر دون

صيرورة أو تطوّر . وقد يدعي البعض ان قصائد عنترة لم تُروَ على حقيقتها . فقد يكون الشاعر تقدَّم بالبيت الثاني على البيت الاول في اصل الرواية . الا أننا إذ نُنعم بهذين البيتين ، يتحقق لنا ان البيت الثاني هو متولّـد من الأول ، ولفظة «يخبرك» التي استهلّ بها البيت الثاني ، هي جـواب الشرط الذي شخص في البيت الاول . وهكذا فان الشاعر لم يَجرِ على خطٍّ متصاعد، بل على خطٍّ كثير الاعوجاج والاضطراب ، يسمو حتى الملحمة، ولا يعتم ان ينحدر ويسفّ هادماً ما سبق له أن ابتناه .

ومهما يكن فإن قوله «وأعفُّ عند المغنم» يدلنا على فضيـلة أُخرى من فضائل الفروسية . فالشاعر لا يغشى الحرب في سبيل بعض الغنائم ، كالجند ذوي المصير التافه ، وانمـا يقصد الحرب للبطولة ، فهو يقاتل للقتال ، لاظهار تفوُّقـه ، وليس في سبيل السرقة والنهب واقتناص اموال الآخرين .

وقد كان من الشائع ان يفتخر الشاعر بشدَّة بطشه في الحرب . اما تفاخره بالتعفف عن المغنم ، فيؤكد لنـا ان الحرب كانت بالنسبة لعنترة وسيلةً لتحقيق الذات واثبـات العظمة . انه يستدرُّ بها إعجاب الناس ، واعجاب حبيبته ، ويتحرر من ميسم الضعة الذي وسمته به الحياة .

وقد كان لعنترة دربة خاصة في القتال ، عبَّر عنها بقوله :

لمّا رأيتُ القومَ أقبلَ جمعُهم
يَتَذامرونَ ، كررْتَ غيرَ مُذمَّمِ

يدعون عنتر والرماحُ كأنهـــا
أَشطان بئر في لبـانِ الأدْهم
ما زلت أَرميهم بفرجـة صدْرهِ
ولبانهِ ، حتى تسَرْبلَ بالدَمِ
فأزْوَرَّ من وقع القنا فزَجَرْتُه
فشَكا إليَّ بعَبْرَةٍ وتَحَمْحُم
لو كان يدري ما المجاورَةَ اشتكى
ولكان لو علِمَ الكلامُ مكلِّمي

ان عنترة ، كما بدا في هذه الأبيات يدرك اسلوب القتـال . فهو لا يقبل على المعركة كيفما تيسَّر له ، بل يظل يترقب اللحظة التي يضطرب فيهـا القوم ، ويولون الأدبار ، حتى ينبري لهم ويضربَ في أعقابهم . ذلك ان الإقبال على الحرب ، فيما يهرب الجند ، أدَلُّ على الشجاعة لان الشاعر يكون قد ألمَّ بها في ذروة الإحتدام وبعد ان انهزَم ابناءُ قومـه . فهو الذي يحوِّل انكسارَهم انتصاراً ، ويحول انتصار الاعداء انكساراً . فبعد ان يكون بنو قومه هاربين امام اعدائهم ، يصبح الأعـداء هاربين امام بني قومه .

اما الابيات اللاحقة ، فتظهر لنا ان البطولة لم تكن في نفس عنترة وحسب بل في حصانه الأدهم أيضاً . فحصانه بطل مثله ، وقد ارتفع به عن مصيره الحيواني وأناط به حالة إنسانية ، إذ جعله يشتكي . فأين هذا الفرس الذي يتجهَّم وجهه ويعاني الأسى ووطأة العراك ، من فرس امريء القيس الواضـح القسمات ،

الصقيل الملامح دون اختلاجة او حيوية . ذلك فرس علمي ، شخص في نظر الشاعر ، وهذا فرس وجدانيٌّ خلع عليه الشاعر من نفسه ، ونسب اليه بطولته .

ومهما يكن فأن عنترة يوقع الحوادث، خلال روايته كأمهر الروائيين . فهو يقول :

يدعون عَنترَ والرماحُ كأنـّها
أَشطـانُ بئرٍ في لبَان الأدْهم

ان هتاف الجند بعنترةان يقدميدل على ان هؤلاء يذكرونه، عندما تشتد بهم الازمة ، ويعيون عن الدفاع. انه السهم الاخير الحاسم في كنانتهم . وهـــذا النداء هو أَجمل نداء تسمعه أُذنا الشاعر ، لأنه لا يعلن تساويه مـــع القوم وحسب ، بل تفوقه عليهم . وهكـذا ، فان انتصار عنترة انتصاران . انتصار على اعدائه اذ لا ينفك يضرب في قفـاهم ويبث في قلوبهم الرعب ، وانتصار على بني قومه الذين ما برحوا يتنكرون له ويحطون من قدره في تمنعهم عن تزويجه عبلة واعترافهم بحريته . ولئن كان عنترة قد ارتفع بفرسه عنسائر الأفراس التي وصفها الجاهليون ، فان ذلك الوصفلم يكن سوى وسيلة يتعالىويتعاظم الشاعربها . فالحصان قد اعتكف وتذمر وأقعى ، لكثرة ما اصيب بالسهام والرماح ، اما عنترة فلميرتد ولم يتقهقر. فهو اكثر شجاعة وأشد بطولة من فرسه .

هذه المعاني هي التي يستشهد بهـا النقاد اذ يدعون ان شعر عنترة يشتمل على كثير من الأجواء والفلذات الملحمية . فأعمال

عنترة ليست أعمال عادية ، بل خارقة . الا انه ثمة فرق هام بين الملحمة الطبيعية والمعلقـــة . إن البطولة في تلك هي بطولة ما ورائية ، إلاهية ، اما بطولة عنترة فبطولة انسانية . فلو توسل عنترة بالجن في انتصاره على اعدائه لتحولت الخارقـة لديه ، من كونها خارقة انسانية عادية الى خارقـــة غيّبية . فالعالم الذي يتجول فيه عنترة عالم مادي ، تحدُّه حدود المنطق والواقع ، . الا ان بعض الحوادث تشابه بين ما نشهده في الألياذة وما نشهده في معلقة عنترة. فكما ان هكتور يكاد لا يقل بطولةعن اخيل، كذلك نرى ان خصم عنترة « هو مدجج كره الكماة نزاله » ، لا يستسلم ولا يهرب . ولقد انعم الشاعر بوصف قوة خصمه ليفيد من ذلك في اظهار قوته . بقدر مـا تعظم قوة الخصم بقدر ذلك يعظم الانتصار عليه :

وَمُدجّجٍ كرِهَ الكماةُ نزالَـه
لا ممعنٍ هَرَباً ، ولا مُستَسْلِمِ
جادَتْ له كفّي بعاجل ضربةٍ
بمُثَقّفٍ صدْقِ الكعوبِ ، مقوَّمِ
فشَكَكْتُ بالرمح الأصم ثيابَه
ليس الكريمُ على القنا بمحرَّمِ

وهناك بطل آخر لا يقل بطولة عن البطل الذي وصفـه في الابيات السابقة ، يرتدي الدرع الطويلة السابغة ، كريم في بني قومه ، لا ينفك يلعب بالقـداح ويلهو بشرب الخمر في الشتاء ، ولقد ألم به الشاعر ، فضربه بالرمح وأسقطه عن فرسه ، وتثنّاه

بسيفه ، فاذا جسمه كشجرة هائلة عظيمة . وهكذا ، نشهد ان البَطَلين اللّذين انبرى لهما عنترة لا يقلان بطولة عن هكتور ، كما أنه يكاَد لا يقل بطولة عن أخيل .

واشد ما يغتبط الشاعر اذ يسمع استنجاد القوم به عندما يقتحِمُهم الأعداء :

وَلَقَد شَفَى نفسي وأبرأ سُقْمَهَا
قيلُ الفوَارِسِ ، وَيْكَ عَنتَرَ أقْدِمِ

والخيل تَقْتَحم الغبارَ عوابساً
من بين شَيظَمَةٍ وأَجرَدَ شَيظَمِ

ولعل لفظتي « شفى » و « أبرأ » عميقتا الدلالة على حقيقة نفسيَّته . لقد كان الشاعر يعاني من احتقار الناس له ، شعوراً بالذلّ ، شبيه بالمرض ، لذلك نراه يشعر أنَّه شفي عندما هتف الجند يستنجدون به . وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه اذ قلنا ان عنترة كان يتوسَّل بالحرب في سبيل التعوُّض عن الذلّ والشعور بالهوان اللذين كانا يعريانه بحالة شاحبة كالمرض . وهكذا ، فان فخر عنترة ينطوي في بعض الاحيان على بعض التعقيد الوجداني ، الذي نستشفه من خلال أعماله وأقواله .

ومما ينبغي ان نتنبه له أن عنترة ، يكاد لا يفتخر ببني قومه ، كعمرو بن كلثوم ، بل على العكس ، نراه يحرص على اظهارهم مخذولين ، مدبرين ، حتى يحول انكسارهم انتصاراً ، كما اسلفنا . الا انه في فلذات أخرى قليلة ، كان يذكر شيئاً من بطولة قومه ، وذلك عندما لا يخاطب عبلة في قصيدته بل يخاطب الاعداء .

فهو يقول :

نادَيت ُعبساً فاستجابوا بالقنا وبكلّ أبيضَ صارمٍ لم يُفلَلِ
حتى استباحوا آل عون ُعنوةً بالمشرفيّ وبالوشيجِ الذُبَّلِ

الا ان هذا التفاخر ببني قومه ، ليس سوى مقدِّمة مجزوءة عابرة للغلوُ في الفخر بنفسه :

إنْ يلحقوا أكررْ وان يُستَلحَموا
أَشْدُدْ ، وان يُلفوا بضنكٍ أنزلِ
حين النزول يكونُ غايةَ مثلِنا
ويفرُّ كلُّ مضلَّلٍ مستَوهل

انت ترى ان الشاعر ، عاد في هذين البيتين ليرتفع على اشلاء بني قومه ، اذ صورهم لنا هاربين ، ملحقين ، او في حالة من الضنك . وذلك كي يقدم فيبدِّد اللاّحقين بهم ، وينقذهم من الضنك الذي يخبطون فيه . ولا بدع فان النزعة الأنانية الفردية كانت ُتسيطر على الشاعر الجاهلي . فهو يتغنَّى بانتصار قومه على الاعداء ، ويتغنَّى في الآن ذاته ، بتفوُّقه على بني قومه في الحرب منيطاً بنفسه ، كل مأثرة وانتصار . وهذا في أصل الاسباب التي أدَّت الى عدم ظهور الملحمة في الأدب العربي . ذلك ان الملحمة ليست تعبيراً عن الفرد ، بل عن الجماعة ، والشاعر لا يتحدث فيها عن نفسه بل يعتزلُها ويتحدّث عن بني قومه ، فعنترة لا ينفكُّ يجمع البطولة لنفسه ، غير متحرّج من أظهار بني قومه في مواقف الذلّ والدمار .

ومهما يكن فان قصائد الفخر الجاهلي ، ليست سوى مجموعة

من الأفكار التي ترتبط بعضاً ببعض،بموضوع وأحد بعيد ، لكنها ليست تتّحدُ بوحدة فنية حيّة . ان المعاني التي ذكرها عنترة في قصيدته الميمية هي جميعاً ، معان فخرية ،إلا انه يمكننا ان نعبث بنظام الابيات ، وان نسقط منها دون ان يختل معنى القصيدة . وكذلك الامر في قصائده كافة ، اذ نرى الشاعر يتنقل من فكرة الى اخرى، من ساحة القتال والوغى حيث يغشانا الغبار، الى خلق من اخلاقه او عادة من عاداته ، ليس لها أيّة علاقة بوصفه للحرب . فبعد ان ذكر البيتين السابقين ، نراه يردف بقوله :

ولقد أبيتُ على الطوى وأظلّه حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ

فأية علاقة بين البيتين السابقين وهذا البيت ؟ هذا الواقع هو عام في القصائد الجاهلية . ففيها قصائد لا تشتمل على وحدة موضوعية أو وحدة عضوية ومنها قصائد تشتمل على وحدة موضوعية من دون الوحدة العضوية . والوحدة العضوية في الفن هي التي تجعل البيت اللاحق في القصيدة يتولد من البيت السابق ، كما تتولد النتيجة من السبب. فكما انه لا يمكن ان نضع عضواً موضع عضو آخر في الجسم ، وكما انه لا يمكن أن نزيل عضواً دون أن يموت الجسم ، أو على الأقل يتشوّه ، كذلك ينبغي أن ترتبط القصيدة بوحدة ، نعجز معها عن اسقاط أحد ابياتها ، او العبث بنظامه دون ان يستحيل المعنى العام او على الاقل يتشوّه . ففي البيت السابق ألمّ الشاعر بذكر فضيلة من فضائله النفسية بعد أن كان في البيتين السابقين يقيمنا في قلب المعركة ، وها هو الآن

يعود الى المعركة من جديد بقوله :

وإذا الكتيبةُ أحجمتْ وتراجعت
ألفِيتُ خيراً من معمٍّ مُخولِ

انت ترى ان الشاعر ما برح يهذي بأفكار ترتبط بموضوع الفخر لكنها لا تترابط بعضها مع البعض الآخر . ومهما يكن فان الشاعر يعبِّر خلال البيتين الاخيرين عن واقعه النفسي . وقد ذكر البيت الاول للنبي، فأعجب به غاية الاعجاب، وقال : «ماذكر لي احد من الجاهلية وتمنيت أن أعرفه إلا عنترة» . الا ان هذه الفضيلة ، بالرغم من دلالتها على عزة النفس تظل مشبعة بروح البداوة ، منقولة عن واقع الصحراء ، حيث كان الانسان يرتوي مرة ، ويظمأ مراراً ، ويتخم مرة ، ويجوع أخرى .

مما تقدم جميعاً يظهر لنا مدى تأثر عنترة بواقع بيئته وتأثره بواقع نفسه خلال فخره ، وقد بدا ذلك خاصة في قوله :

واذا الكتيبةُ أحجمتْ وتراجعت
ألفِيت خيراً من معمٍّ مُخولِ

والخيل تعرف والفوارس أنني فرقتُ جمعَهمُ بضربة فيصلي

ان افتخار الشاعر هو كثير الوجدانية لانه يعبِّر به عن واقعه الخاص . فعندما تلتحم الكتيبة بالكتيبة ، عندئذ ، يتحقق القوم ، انه خير من المعمّ المُخول . أي انه خير من اولئك القوم الذين يفتخرون عليه ويحتقرونه وليس لهم فضل عليه الا انهم ذوو اخوال واعمام بينما هو من أَمة حبشية . وقد اراد الشاعر ان يظهر لهم ان عظمة الانسان هي في نفسه ، في

قدرته وكفاءته الشخصية من دون بني قومه وأهله . وبذلك يغدو فخره فخراً التزامياً اذا جاز التعبير، يدافع به عن عقيدته محاولاً ان يقنع الناس بها . وهكذا ، فان المُعِمّ والمخول يمثلان وجهاً آخر للعداوة في نفس عنترة، فليس في نفسه حقدٌ على الذين يقاتلهم، بقدرما فيها على بني قومه الذين لا فضيلة لهم إلا أنهم أحرار . وهنا تختلف نظرتنا الى عنترة . فبدلاً من تلك الصورة المتلالئة المزهوة، يخيل الينا أن وجهه شديد العبوس والتجهم وان وراء عنجهيته وبطولته شعوراً حاداً بالمستحيل والنقص الذي لا يعوض . لهذا قيل ان الشعر العظيم لا يتولد الا من المأساة العظيمة . وهذا القول صادق غاية الصدق ، لأن الشعر ليس تقريراً للمعاني الواضحة، وانما هو تعبير عن لحظات الاختلال والتعقيد في النفس البشرية .

عنترة امام الموت

عندما يتصدى عنترة للاعداء ويقبل بعد ان يولي الجميع ، فانه يواجه مشكلة الموت في كل لحظة من اللحظات التي يقضيها مصارعاً، مكافحا في المعارك . وهكذا تُعقد في نفسه مشكلة تنازع البقاء ، إذ أنه في اكتسابه للمعالي ، يوشك ان يخسر نفسه. ومن هذا القبيل لا تعود مشكلة عنترة مشكلة لونه ودمه وولادته ، وانما تغدو مشكلته مع حياته وحبه للبقاء . مشكلة تنازعه بين الإقدام والإحجام ، بين الجبن والشجاعة . وبذلك اختلف عنترة عن كثير من الجاهليين . فهو لم يكن يكافح في

سبيل تحصيل لقمة العيش ، لانه لو رضي بالذل والهوان لتوفر له الطعام الذليل ، لكنه لا يكتفي من الحياة بالأكل والإستمرار ، وانما يريد ان يحقق مثلاً من مُثُل البطولة التي يؤمن بها ولا يرى لذاته سعادة الا بتحقيقها :

بكرت تخوّفني الحتوفُ كأنني
أصبحتُ عن عَرَضِ الُحتوفِ بمعْزَلِ
فأجَبْتُها ، ان المنية مَنْهَلٌ
لا بد ان أُسقي بكأس المَنْهَلِ
فاقْني حياءك ، لا أبا لك ، واعْلَمي
أُني امرؤٌ سأموت إن لم أُقْتَلِ

وايا ما كانت الحال ، فان فخر عنترة ، يشتمل بالاضافة ، الى ما اشتمل عليه الفخر الكلاسيكي ، على تنازع حاد قاتم مع الحياة والمصير والقدر ، ممّا لا نشهده عند غيره من شعراء الفخر.

لماذا لم تنشأ الملاحم في الشعر العربي

ولا بد لنا من التصدي للبحث عن الأسباب التي حالت دون تطوُّر الفخر الجاهلي الى ملاحم طويلة شبيهية بملاحم الاغريق وسائر الشعوب البدائية . ذلك ان الملحمة هي أثر أَدبي ، يرافق الحماس البدائي وعصور الغزوات والتنازع والحروب .

لا شك انه ، ثمة عقدة من الاسباب ، أهمها واقع النفسية والبيئة الاجتماعية . ان الجاهليين كانوا يعيشون قبائل متنابذة متناحرة ، لا يجمعهم مصيرٌ واحد ، ولا تاريخ مشترك . فلو

تطورت العصبية القبلية الى قومية عربية تجمع العرب في بوتقة واحدة ومصير واحـــد ، ولو ارتقى الفرد العربي من فرديته وذاب في ذات الجماعة، يعاني مصيرها: يفرح بانتصارها، ويشقى بانكسارها ، لكان من الممكن أن ينشيء ملاحم .

وهنالك ايضاً أمر البيئة التي عايشها . فقد كان الجاهـــلي يتنقّل من مكان الى آخر في سبيل اكتساب لقمة العيش فـــلم يعرف البناء ، ولم يستقر لينشيء مدينة ، ويخبر الهندسة والاعمال الفكرية المسهبة ، الطويلة الامد . ان الملحمة بالنسبة للقصيدة ، هي كالقصر بالنسبة للكوخ . والشعب الذي لم يقدّر له ان يتمرّس ببناء كوخ أو بيت يعجز ، دون شك عن بنـاء قصر ملحمة .

وثمة سبب عظيم الأهميـــة في تعليل عدم ظهور الملحمة . انهاالنزعـــة المادية التي كانت تسيطر على واقـــع الحيـاة الجاهلية. ان الملحمة ليست في الواقع سوي محاولة لتفسير الكون من خلال الشعور والخيال ، انها نتيجة للتأمل الما ورائي ، في عالم امّحت عبره ، حدود الممكن والمستحيل . أما العربي الذي كان يعيش وهو يهرول ، أبداً ، وراء لقمته ، فكان يستحيـل عليه التفرغ للتأمل بما وراء الحياة. لقد شغِلَ بالحياة عن التأمل في ما وراءها ، فلم تنشأ لديه تلك الأساطير البعيدة الغور الـتي تجعله يعيش في ملحمة هائلة يشترك فيها الانسان مع الأرباب .

تلك كانت الأسباب النفسية الاجتماعية ، وهنالك ، أيضـاً الأسباب الفنية . فالقصيدة الجاهلية ، كما بدت في المعلقات وفي

سائر الشعر الجاهلي ، كانت تجري وفقاً لسنَّة تقليدية ، تـكاد لا تحيد عنها . لقد أَلِفَ العرب القصيـدة ذات الرويّ الواحد ، ويرون أن أهم ميزة من مميزات العبقرية الشعرية، ان يوفق الشاعر في اختيار الروي الواحد لقصيدة طويلة . فأنى للشاعر ان يجمع آلاف القوافي المتشابهة للقصيدة الملحمية .؟

وهنالك واقع فني آخر كان يستبد بالقصيدة الجاهلية . لقد كان هؤلاء يرون ان جمال الشعر هو جمال معنى البيت بحد ذاته من دون القصيدة بجملها . والبيت في قصيدتهم مستقل في دلالته عن سائر الابيات ، وان كان يشترك معها في الدلالة البعيدة على على موضوع واحـد . ومن الضروري ان ينتهي المعنى في نهـاية البيت ، دون ان يتجاوزها الى البيت اللاحق ، ولقد أعابوا على النابغة قوله :

وَهمْ وَرَدُا الجِفار على تمـــيم
وَهُمْ إصحاب يوم عكاظ إني
شَهُدْتُ لَـهُم مُوَاطِنَ صادِقات
أَتيَنَهُم بوُدٍّ الصـــدْر مني

لقد وصل الشاعر بين البيت الاول والثاني ، وهذا التضمين كان يعتبر آفة من آفات الشعر. فكيف يمكن ان ينظم الشاعر قصيدة تبلغ آلاف الأبيات دون ان يقع في التضمين ؟

وهنالك ايضاً عامل التقليدالذي كان يدفع الشاعر الى اقتفاء المعاني التي سبق ان ألمّ بها من سبقه متجاوزاً عن القيام بتجارب خاصة تكشف له معالم نفسية جديدة .

الفخر الوجودي في شعر طرفة

ألف طرفة الشعر منذ حداثته ، فأبوه كان شاعراً ، فضلاً عن عميه وخاله المتلمّس . إلا أنّ والده توفي وهو حدث ، فترعرع الى جنب والدته ، يعانيان معا ظلم اعمامه وقسوتهم . ولقد تلفع عصبه بالقنوط والاسى في كنف تلك الوالدة التي لم تكن تنظر الى الحياة الا بعين واجفة ، سوداء . وربما اورى به ذلك شعوراً عدمياً ، وحسّاً حاداً بالتخاذل والبؤس . ولما شبّ طفق يُسرف في أمواله ، فتبددت ، وابتلاه الفقر ، حتى قدِّر له ان يتصل أخيراً بعمرو بن هند الذي خلع عليه وقرّبه . لكن الاحوال ما عتمت ان ساءت بين الشاعر والملك ، فزوده كتابا الى عامله على البحرين واوهم الشاعر انه اوصى له بعطاء ، فيما كان قد أمر بقتله . وما ان نفذ الى البحرين حتى غُدر به.

لعل هذه الحياة المُضطربة ، هي في اصل ما سوف نشهده في شعره من تشاؤم بائس ، وتردُّد وتنازع بين احوال مختلفة متناقضة ، سما بها شعره عن واقعه الخاص وواقع بيئته . وغدا

شأنه شأن غيره من طلاب اللهو والمتعة الذين يكثرون في عصر البداوة . الا اننا اذا امعنا في التحديق والتفرس ، نشهد ان ذلك الوجه العابث الماجن ، انما هو قناع خارجي وان طرفة في هذا التفاخر الماجن كان يصدر عن تفكير عميق جذري وان سلوكه الخارجي ليس سوى مظهر او انعكاس لمـــا يعانيه في الداخل من احساس مبرم بالفشل والعقم والتفاهة . ولعـل بعض النقاد ما برحوا يردِّدون ان طرفة قَصَر حياته على أُمور ثلاثة متمثلين بالابيات التالية المجتزأة من معلقته :

فلولا ثـــلاثٌ هن من لذّةِ الفتى
وجدِّك لم أحفل متى قامَ عوّدي
فمنهنّ سبْقي العاذلاتِ بشربةٍ كميتٍ
متى ما تعـلَ بالماءِ تزبـــدِ
وكرّي — اذا نادى المضافُ — محنّباً
كسيدِ الغَضا ، نبّهته ، المتوردِ
وتقصيريوم الدجْنِ ، والدجنُ مُعْجبٌ
ببهكنةٍ تحتَ الخبـــاءِ المعمّدِ

لذة الفتى :

لعله ينبغي لنا ان نتبصر ملياً بقول الشاعر « ولولا ثلاث هن من لذة الفتى » . ان طرفة يختصر حياته بثلاثـــة امور لكنها جميعاً هي من « لذة الفتى » اي ان المبدأ العام لديه هو مبـــدأ اللذة ، اما الامور الثلاثة فليست سوى الوجوه المتعددة لتلك

اللذة الواحدة . فاللذة هي هدفه يعلها او يتمتع بهـــا في وجوه ثلاثة ، في الخمرة والمرأة والكرم . ويقيني ان حرصه على إعلان هذه العقيدة ومجاهرته بها ، ليسا للتفاخر والزهو والاعتداد ، بقدر ما هما للتصدي للآخرين واظهار غباء معتقداتهم وتقاليدهم وسلوكهم . ذلك يعني ان افتخار طرفة بنفسه هو مظهر لزرايته بقومه واحتقاره لمصيرهم . ولقد اقترب بذلك الى عمر الخيام الذي كانت الخمرة بالنسبة له وجهاً من وجوه نظرته للحيــاة او بالاحرى انها نتيجة لتلك النظرة .

التناقض والازدواج :

وهكذا نشهد ان طرفة كثير التناقض . فبينا هو يفاخر بتكريمه للضيوف ، وقوة شكيمته وبلواه في الحروب اذا هو يفاخر بشربه للخمرةوادمانه اياها ، حتى الفقر المدقع والبؤس. وينبغي ان نلاحظ ايضاً ان مباديء اللهو والمتعة الثلاثـة التي قصر عليها حياتة ، انما تتناقض ايضاً بين ما كان يراه الجاهليون فضيلة وما يرونه رذيلة . فهو يفخر بالمجون ومعابثـــة المرأة ، وهذا مما كان يخفض من قيمة الجاهلي. لكنه يعود فيفتخر بهرعه ، مستجيباً لنداء الضيف ، وذلك مما كان يحتفل به الجاهليون ويقدرونه . فكيف يمكننا ان نوفق بين هاتين الحالتين اللتين تناقض بل تنكر احداهما الاخرى .

هل انت مخلدي :

يقيني ان هذا السلوك الذي سلكه طرفة لم يكن سلوكـــاً

عفوياً ، ساذجاً ، وهو ليس سورة للعبث والهذيان ، وانما دليل على حقيقة نفسيّة لم تسفر او تتضح في شعره . ذلك ان طرفة لبث يتساءل ويلحُّ بأمر هذا الوجود وما وراءه ، فالتبس وتعقّد ، وخيل اليه انه ليس ثمة وجود وراء هــذا الوجود وان الموت سيلمُّ به لا محالة :

ألا أَيهذا اللائمي أشهدَ الوَغى
وأن أحضر اللذات هل أنت مخلدي

فالقضية اذن هي بالنسبة اليه هي قضية خلود . أي قضيــة الموت والحياة . ما جدوى عمرنا إذا كان الموت سيدركه ، وما جدوى السعادة والمال ، والجاه والسلطة ، ما جدوى الحيــاة جميعاً ، إذا كان الموت سيحيلنا عنها . هــذه الامور هي مظهر لغباء الانسان الذي يُشغف بها ، لانها مختلفة متباعدة ظـاهراً لكنها متشابهة ضمناً لأنها تتساوى جميعاً أمام العدم . ان فخر طرفة بذلك يغدو فخراً وجودياً ، يعاني مصير الاشياء ويرتبط بحقيقة الوجود وفهمه . ولعل الشاعر خرج هنا عن نزعته الفرديّة وأصبح رمزاً للانسان ، رمزاً لوطأة الوجود عليه ، فهو لا يرضى من الحياة بأن يحيا وانما يتعذّب ويتحرق بسره أو بلغزه . يريد أن يدرك سرّ نفسه ، سرّ الوجود ، وعندمـــا عجز ولم يشهد أمامه سوى الموت الفاغر ، عندئذ أيقن بباطل الحياة التي يحياها ولا جدوى الأماني والمطامع التي يسعى ويشقى لتحقيقها . الا ان هذا اليقين الذي نفذ اليه ، يكاد ان يصرعه بل يسحقــه ، فالشاعر لا يطيق مصيره لأنه لا يعرف غايته ولا يمكنــه ان

ينخدع بغاية تقليدية مجانية واهمة . عندئذ طلب الهرب، الهرب من مواجهة ذاته، وسعى الى تخدير وعيه بنفسه ، بنفاهته وعبثه، فلم يجد أمامه سوى الخمرة ، فهي التي تبث به نشوة الخدر والموت الوئيدين ، وهي التي تخفف عن كاهله وطـأة الوعي والادراك وتدعه في غيبوبة عن ذلـك العمر الذي لا جدوى منـه ، لأنه ليس سوى لحظة تطول أو تقصر ثم يليها العدم والمجهول اللذان يحيلان قِيم الأشياء .

اليقين العدمي وتساوي الفضيلة مع الرذيلة :

ولعل هذا اليقين العدمي أدّى بالشاعر الى استحلال المحرمات ولم يعد لديه من رادع دونها ، لأن الإنسان عندما يكفر بما وراء الحياة ، يكفر أيضاً بالحياة ذاتها ، ويغدو ممعناً بالتهزؤ والسخرية بمبادئها الباطلة التي توهم الانسان بيقين كاذب ، متفاخراً على جميع من يكرمون تلك المبادىء أو يتقيدون بها . من ذلك جميعاً نفهم ان الحدود بين الرذيلة والفضيلة امّحت بالنسبة لطرفة وربما تساوتا لديه حتى غدا يفتخر بمجونه الذي هو رذيـلة ، كما يفتخر بقراه للضيف الذي هـو فضيلة . ان طرفة لا يستقري الضيف لأن الضيافة فضيلة وانما لأنها لذة ، أي لأنهـا تجعله يشعر بلذة شبيهة باللذة التي يشعر بها عندما يحتسي الخمرة . فطرفة لا يفتخر بالخير لانه خير، ولا يتمرس بالفضيلة لأنها فضيلة ، وانما يصدف ان يتفق ما يلذه ويمتعه مع ما يدعوه الناس فضيلة او خيراً. وهكذا فقد اتفق ان كانت الضيافة لذة له وبالنسبة للناس فضيلة . ولو

كانت الضيافة بالنسبة للناس رذيلة لما جعله ذلك يرتدع عنها ، لأنه لا يؤديها لفضيلتها بل للمتعة التي تعروه بها . او لم يقل : « ولولا ثلاث هن من لذة الفتى » ؟ ذلك ان اللذة كانت رائد طرفة وليست الفضيلة . لا شك ان المجتمع الجاهلي اثر كثيراً في دفعه الى التفاخر بالقرى ، لأن هذه اللذة هي لذة بدائية فضلاً عن كونها فضيلة .

وبذلك تبدو نزعة طرفة الفردية ومعاناته الوجدانية وحقيقة عبثه وتمرُّده . ان فخره هو فخر امرىء ثائر يرذل مفاهيم التقليد وينبري للحياة ، التي لا تجاري تصرف الغير تقليداً ، بل تسلك وفقاً ليقين الوجدان والاقتناع الداخليين . فهو لا يخشى ان يحقق ما يخطر له جميعاً ، اكان خيراً ام شريراً ، وفقاً لما يروق لطبعه ويقين اللحظة التي يعاني وطأتها .

خمرة الشقاء :

الا ان هذه اللذة ليست لذة عابثة كما قد يخيل للبعض ، ليست تهتكاً وفجوراً بقدر ما هي فجيعة تتهرب من ذاتها ، انها البؤس الذي ينحدر الى اعمـــاق الكأس ، حيث تختل صور الواقع ، وتتشوه ، ويعتري الدوار والذهول ، انها سورة الموت البطيء :

فان كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني ابادرهـــا بما ملكت يدي

ان قوله « دعني ابادرهـا » كأنما يعني انه يقتحم المنية ، اي انه يريد الموت ، لكنه ليس ذلك الموت المتردد الخائف ، الذي يقضي العمر في ترقب المجهول ؛ وانمـــا هو الموت الذي يفد الى

الانسان وهو في غمرة العبث والمجون . ولعل الوغى واللذة همـا سبيلاه الى هذا الموت :

ألا أيهـذا اللائمي أشهد الوغى
وأن أحضر اللذات هل أنت مخلدي
فأن كنت لا تستطيع دفع منيتي
فدعني أبادرها بما ملكت يدي

ان طرفة بخلاف ما يتصوره بعض النقاد ، كما اسلفنا ، ليس مستخفاً ، خلال فخره يصدف عن الحياة والتأمل بها ، وانما هو في الواقع قد بالغ بتأمله لهـا ، بل بالتحديق والتفرس فيها بجد وامعان ، حتى ادى به ذلك الى اعلان الكفر والاستهتار. ولئن شاهدناه مترصناً في بعض الابيات موافقاً لواقع حال الجاهليين ، فان ذلـك لا يعدو ان يكون غالباً لحظـة تعبر على سطح ذلك الخضم الهائل الذي تتلاطم فيه امواج القلق عبر نفسه .

السخرية بالتقاليد :

ان مشكلة طرفة ليست كمشكلة الناس الذين يقصرون همهم على امر تدبير معيشتهم. ذلك انه ارتقى او نزع من هم معيشته الى هم العيش والوجود عامـة . فمشكلته مشكلة ايمان ، لا يشعر برابط يربطه بقيم الحـياة ، لذلك نراه في فخره يتهزأ بالجاهليين الذين كان يدعي دعوتهم منذ لحظات ، ويسخر من تلك العقيدة التي جعلتهم يتخيلون ان روح الانسان تتحول الى طائر ، يسمونه الهامة او الصدى :

فذرني أروّي هامتي في حياتِهـا
ستعلمُ،ان متنا ،صدى أينا الصدي
كريمٌ يروّي نفسَه في حياتِـه ،
مخافة َشربٍ ،في المماتِ،مصرّدِ

هذان البيتان يظهران طرفة منشغلاً بيقين الحاضر ، باللحظة التي يمر بها ، عن اليقين المحتمل الذي قد لا يتحقق او يستحيل . فهو اذ يقول : « فدعني اروي هامتي في حياتها » كانما كان يظهر اعتقاده بانه ليس ثمة وراء الحياة الحاضرة حياة اخرى . كما انه كان من الذين يعتقدون انـــه ليس وراء الموت ظمأ او تصرد . فالبيت الاول اذن يظهر وجهاً من اعتقادات الشاعر بما وراء الحياة، بالاضافة الى ذلك الوجـــه الساخر ، المستخف بمن ينمون الى الانسان بعد الموت احوالاً منقولة عن واقعه في هــذا العالم . ان ايمان الجاهليين بان الانسان قد يظمأ او يتصرد بعـد الموت ، انما هو بعث للذات الانسانية ، فيما وراء سورة الموت والفنـاء التي تغشى جسد الميت . فالميت بذلك لم يزل يعاني ما يعانيه الحي ، اي انه حي وراء القبر ، كما يتوهم الجاهليون ، لكن طرفة يرذل هذا الايمان الذي لا بينة له عليه ، وربما نظر اليه نظرة العـــالم المدرك ، الى السذج البسطاء الذين لم يفتح لهم يقين الاشياء .

تجربة الموت والسأم

وهكذا فان الشاعر يمتزج في ابيات هـــذه القصيدة بين احوال عديدة شتى،مسرفاً في الفخر والاعتداد بالمجون والعبث .

ان طرفة بذلك خرج عن عمود الشعر الجاهلي ، او بالاحرى عن عمود الوصف والنقل الجاهليين ، ونفذ من الظاهرة الى التساؤل عما وراءها فغدا فخره فخراً وجودياً اذا جاز التعبير ، يعلن سأم النفس وانخذالها او حيرتها بالمصير والحياة .

الكأس والجمجمة

ولعلي بشبح الموت يهوم عبر القصيدة جميعاً . فانت ترى ان الشاعر ، يكاد لا يؤخذ بفكرة عارضة ، حتى يعود يتردّد من جديد الى هذه الفكرة فكأنه كان يشرب الخمرة بجمجمة ، تعروه باليأس والقنوط ، فيما هو يسلو ويتماجن . او كأن الجمجمة كانت تتراءى له عبر الكأس ، بل في قعره تنغص عليه متعته وتتولاه بالبراح والقنوط . هاكه يقول :

لعمرك ان الموتَ ما اخطأ الفتى
لكالطول المُرخى وثنياهُ باليَدِ

في هذا البيت نشهد يقين الموت الذي لا ينفك يردّده الشاعر. وهكذا فانه قد شبّه الحياة برسن قد ترخيه يد الموت ، حتى إذا ارادنا اليه جذب الرسن ، ساعة يشاء . لا شك ان الصورة جاهلية ، مستفادة من صور الجمال او النوق ، وما إلى ذلك من الحيوانات التي تجذب بالرسن لكنها في الآن ذاته تمثل واقع الشاعر اذ يكاد لا يشعر بالحرية والراحة ، حتى يتحسس رسن الموت في عنقه . وهو إذ يتفرّغ للذته يظل خائفاً ان تعجل يد الموت بجذب رسن عمره . ان تحسسه المعذب الدائم بهذا القيد ، جعله

يواجه أبداً الجمجمة ، كما أسلفنا ، فيدرك ان ما يتفاضل به الناس بعضهم على بعض ، ليس سوى غرور وغباوة ، تقف حدودهما عند جدار القبر . فالغني الذي يبالغ بجمع ماله ، والفقير الذي يبذر ما يحصله ، ان ذينك الغني والفقير ، يتشابه قبراهما ، أي يتساويان أمام الموت . وهكذا لا يكون الموت عدماً بذاته وحسب ، وإنما هو يعدم سائر الفضائل الانسانية :

أرى قبر نحّامٍ ضنينٍ بمالهِ ، كقبر غويٍّ ، في البطالة مفسدِ
ترى حثوتين من رمالٍ عليهما صفائحُ صمٍّ من صفيح منضّدِ
أرى الموت ُ يعتام الكرام ويصطفي
عقيلة مال الفاحش المتشدّدِ
أرى الموت اعداد النفوس ولا أرى
بعيداً غدا ما أقربَ اليوم من غدِ
أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة
وما تنقص الأيام والدهرُ ينفدِ

من هذه الأبيات نرى ان فكرة البراح والزوال تأخذ على الشاعر أحلامه وأفكاره جميعاً. ان الموت سيفد غداً ، وغده مهما ابتعد قريب . أو كما تقول إحدى الشواعر الغربيات [1] « ها أنا قد مت الآن ، لأنني سأموت غداً » . فالموت يبقى ذلك اللغز المخيف الذي ينغص على الحي حياته ، ويقضي على اللذة التي نتمتع بها . انه وجه الحياة البعيد القريب ، لهذا شهدنا في الآونة

---

١ – الكونتس دي نواي

الاخيرة جماعة ممن يعتقدون ان الانسان ابتدع الله من نفسه لينتصر به على الموت .

ردة جاهلية

الا انه ليس في شعر طرفة لحمة ، او مذهب متلاحق بل سوانح وخطرات . لذلك لا نعجبن ان نشهد لديه ردة يختلف فيها رأيه السابق عن رأيه اللاحق ، فبينما هو ينعى على الحياة وينذر بالويل والشؤم، إذا به يشتدّ من جديد ويشرع في التفاخر بفضائل تدل على تعلقه بالحياة :

انا الرجل الضرب الذي تعرفونه خشاش كرأس الحية المتوقّدِ
فان متُّ فانعيني بما أنا أهله
وشقّي عليَّ الجيبَ ، يا ابنة معبدِ
ولا تجعليني كامرىء ليس همُّه
كهمّي ، ولا يغني غنائي ومشهدي

هذه مرة أُخرى يعود بها الشاعر الى المفاخرة كما عرفت في عادات الجاهليين . فهو لذلك يطلب من ابنة اخيه معبد ان لا تساوي بينه وبين امريء تافه ، لا هموم كبيرة لديه :

فان متُّ فانعيني بما أنا اهلُه
وشقّي عليَّ الجيبَ يا ابنة معبدي
ولا تجعليني كامريءٍ ليسَ همُّه
كهمي ولا يغني غنائي ومشهدي

فلو كنت وَغْلاً في الرجال، لضرّني
عداوةُ ذي الاصحاب والمتوحّد
ولكن نفى عني الرجال جراءتي عليهم
وإقْدَامي وصدْقي ومحتـــدي
لعمرك مـــا امري عليّ بغُمَّة
نهـاري ولا ليلي عليّ بسَرْمَدِ
ويوم حبست النفسَ عند اعترا كِها
حفـــاظاً على عوراتِه والتهددِ
على موطن يخشى الفتى عندَه الردَى
متى تعترك فيه الفرائصُ ترعدِ

لعل هذه الابيات تطلعنا على المضاعفات النفسية التي كان طرفة ينوء تحت وطأتها ويعاني تناقضها وبؤسها . انه يريد ان يتحرر، لكنه يعود فيشعر بارتباطه مع اولئك القوم الذين يحيـا معهم . فاذا هو يفتخر بفضائل من اعماق روح العصر وما فيه من بطولة تقوم على الانتصارات وقوة الصلب والساعد . هذه الفضائل ، هي اذن ، فضائل جاهلية ، لانها جميعاً ، كانت ضرورية بالنسبة لواقع المجتمع ، عصرئذ ، حيث كان الناس يكفلون عيشهم بمـا يكسبونه من أعـــدائهم او جيرانهم . لذلك ، نرى ان جميع الفضائل التي يفخر بها طرفة في هـــذه الابيات ، هي فضائل حربية ، انهـا المثال الاعلى للبطولة ، كما كان يتمثله ويتوق اليه الجاهليون . ان الفضيلة الاولى التي يفخر بها هي الخفـة . فهو « رجل ضرب » اي خفيف اللحم ، وهو كذلك خشاش ، اي

دخال في الامور لخفته وسرعته . ونحن نعلم ان الخفة وسرعة العدو ، كانت من أهم مميزات البطولة والفروسية . وقد نشأت في ذلك ، أساطير كثيرة حول سرعة عدو بعض الفرسان الصعاليك ، حتى قيل ان تأبط شرا كان لشدّة عدوه يدرك الغزلان فينتقي أسمنها ، كما قيل إنه « اعدى ذي رجلين ، وذي ساقين ، وذي عينين » . ولعل الشنفرى لا يقلُّ عنه بطولة . فهو يفتخر بانه ألم بأحد الأحياء « فأيَّم نسوة وأيتم ولداً » دون ان يستطيع احد من القوم ان يدركه ، حتى جعلوا يتساءلون ويتحيرون ، ويخيل اليهم انه جنّ طرق ليلاً :

فقـالوا لقد هَرَّت بليل كلابُنا
فقلنا أذئبٌ عسَّ ام عسّ فرعَلُ
فلم تك إلاّ نبـأةٌ ثم هوّمت
فقلنا قطاةٌ ريع أم ريعَ أجدلُ
فان يكُ من جنٍّ لأبرحَ طارقاً
وان يكُ أُنساً ماكَهَا الأنس تَفْعلُ

هذه الابيات رائعة الدلالة على شدّة عدو الشاعر وهي تمثل افتخار الجاهليين بخفتهم ، فكأنَّ طرفة هنا مردد لمـا كان الجاهليون يفخرون به .

وهاكه يصف ضربته الاسطورية الفريدة :

فآليت لا ينفك كشحي بطانةً
لعضب رقيـق الشفرتين مهنـد

حسامٌ إذا ما قمت ممتشقاً به

كفى العودُ منه البدء ليس بمعضد

فهو اذا اراد الانتقام انبرى بسيفه القاطع الذي تكفي ضربته الأولى لبلوغ المرام فلا يحتاج الى استعماله لضربة ثانية . اي انه يشطر او يقد به خصمة قداً . وهذه ايضاً فضيلة مما شاع في العصر الجاهلي الذي لا ينفك يتوسل بالسيف في كسب العيش وفي الدفاع عن العرض وفي المفاخرة والسمو على الاصحاب والاقران.

وثمة فضيلة الصبر على المكاره والجلى في قوله :

ويوم حبسْتُ النفس عند اعتراكها

حفاظاً على عوراتها والتهدُّدِ

على موطنٍ يخشى الفتى عنده الردى

متى تعتركْ فيه الفرائصُ ترعد

هذه جملة من الخصال التي تظهر طرفة معتمّاً بعمامة الجاهليين، يجري مجراهم ، يفرح بما يفرحون به، ساعياً لتحقيق ذاته وتقويمها بما ينيله احترامهم ويرفع مقامه بينهم .

رسول الولادة الجديدة :

ولعله ينبغي لنا ان نتساءل مرة اخرى عن هذا التناقض البعيد بين احوال طرفة . فحيناً هو جاهلي يفتخر بما يفتخر به فرسان الجاهلية وصعاليكها وحيناً آخر هو ثائر يتهزأ بآرائهم متحدياً لعاداتهم ونظمهم وتفكيرهم . قد يضار طرفة بهذا التناقض والازدواج ، لانه متقلب متردد ، يؤمن ثم يكفر ،

الا انني اعتقد ان هذا التناقض انما هو مظهر للقلق الانساني ، لطبيعة النفس البشرية للتي تترجح بين الايمان و الكفر ، وتمد وتجزر بين أحوال شتى . إنه مظهر لتنازع الإنسان مع ذاته ومع الحقائق والوجود . فطرفة هو رسول الولادة الجديدة ، تحتضر فيه بقايا الجاهلية وعاداتها ، أو بالأحرى انها تتصارع وتتنابذ مع اضواء اليقين و الحقائق الجديدة التي تشرق او تحدس فيه .

نموذج من الفخر الملحمي في الشعر الجاهلي
معلّقة عمرو بن كلثوم

دامت الحرب بين بكر وتغلب أربعين سنة ، ولم تتعاقد القبيلتان على الصلح إلا بعد أن ألـّف بينهما المنذر . وكان أن سيـّر فيما بعد ، إبنه عمرو بن هند جماعة من بكر وتغلب في بعض أموره ، فافتقد التغلبيون ، واتهم البكريون بالإيقاع بهم . ولما احتكموا إلى عمرو بن هند أقتضى سبعين رجلاً من البكريين كوثاق للحقّ عنده ، فقبل البكريون . وفي يوم التقاضي انتدبت تغلب للدفاع عنها سيدها عمرو بن كلثوم ، بينما انتدبت بكر أحد أشرافها النعمان بن هرم ألذي ما عتمّ أن طرده عمرو بن هند من حضرته ، فقام عمرو بن كلثوم فانشد قسماً من معلقته ثم وقف الحارث بن حلِزة فردّ عليه واستمال الملك بدهائه ، فحكم للبكريين .

إلا أن تغلب كانت منيعة الجانب بالرغم من ذلك ، حتى قيل لو أبطأ الإسلام لأكل بنو تغلب الناس . وروى أن عمرو بن هند

تواقع مع والدته على ان تُذلّ والدة عمرو بن كلثوم ، فلماقدمت إلى زيارتهـــا نحّت الخدم ، وطلبت من والدة عمرو بن كلثوم ان تناولها الطبق . فأجابت : «لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها» فلما ألـّحت عليها صاحت ليلى والدة الشاعر : «واذلاه يا لتغلب» فسمعها عمرو ابنُها ، فهبّ إلى سيف معلـّق بالرواق ، وضرب به عُنُق عمرو بن هند ، ثم فرّ إلى الجزيرة ، وفي ذلك نظم القسم الثاني من هذه المعلـّقة .

تلخيص :

يستهلّ الشاعر قصيدته ، متحدثاً عن الخمرة ثم ينتقـل الى الغزل ، ولا يعـّتم أن ينفجر ، فجأة بالحماسة الثائرة أمام عمرو بن هند ، ذاكراً بطش قومه الذين لا تصْدر راياتهم إلا بعد أن تروّى بدماء ذوي التيجان . أما مجدهم فهو عريق ، يذودون عنه بضرب السيوف التي تشقّ الرؤوس شقـّاً . ثم ينثني لتهديد أعدائه ، معـّنفاً عمرو بن هند بقوله « متى كنا لأمك مقتنينا » . ويمضي في تعداد مجد أجداده كعلقمة بن سيف ، وجدّه المهلهل وزهير وهو جدُّه لأبيه كلثوم . ثم يُشير إلى الأيام التي انتصروا فيها ، كيوم حزازة ، الذي آبوا فيه بالملوك المصّفدين . ومن ثمّ يتعرّض لدروعهم ، فإذا هي دلاص ، سابغـــة ، كما أن جلود محاربيها سوداء ، صدئة لكثرة لباسهم للدروع . أما أفراسهم ، فهي كسائر الأفراس الجاهلية ، تكاد لا تقلّ بطولة عن فرسانها ، وكذلك ، فهو يذكر دور النساء في الحروب ، وقـــد امتطين

الجمال ، وجعلن يترْنَ الحماس في المقاتلين . ويعود في النهاية إلى الفخر المباشر ، حتى يجعل لقوّته سلطة مطلقة على مصير الناس، فهم المطعمون ، وهم المهلكون ، وهم التاركون والآخذون ، لا يشربون إلا الماء القَراح بينما يشرب غيرهم الكدر والطين . وقد بلغ أوج التفاخر بقوله :

ملأْنا البرّ حتى ضاقَ عنّا ... وظهرَ البحرِ نملأُه سفينا
لنا الدنيا ومن أَضْحى عليها ... ونبْطشُ حينَ نبطش قادِرينا
إذا بلغَ الفطامَ لنا صبيٌّ ، ... تخرُّ له الجبابرُ ساجدينَا

نقد وتحليل :

ألم الشاعر في المطلع بنحو ثلاثة عشر بيتاً ، في وصف الخمر والغزل، وقد كان الجاهلي يرى أن هذهالمقدمة ضرورية لشعره ، وفقاً لسنّة غامضه ترسّخت في طبيعة هذا الأسلوب . ولعلّنا نستدل بذلك إنّ الشعر الجاهليّ الذي نعرفه ليس هو الشعر الأول الذي نظمه الجاهليّون ، وانما سلف قبلاًشعراء ممن ضاعت أشعارهم وأسماؤهم ، كانوا قد أسرفوا بتداول هذه المقدّمات ، حتى شاعت وغدت تقليداً يحتذى . والشاعر بهذه المقدمة لا يلمُّ بموضوعه ، بل يمهِّد له ، وقد كان من الشائع أن يستنبط حيلة من المعنى ، يوفّق فيها بين هذه المقدّمة وضرورة الانتقال إلى الموضوع المباشر الذي يتصدّى له . أما عمرو بن كلثوم فقد انبرى فجأة ، من هذه المقدمة التقليدية إلى معاتبة عمرو بن هند وتعنيفه . ولعلّ هذا الانتقال السريع ، بل الصاعق من المقدمة

التقليديّة إلى التعنيف ، يمثل لنا بصورة غامضة قـــاتمة شدّة النزوة التي كانت تصطخب في نفسه خلال تصدّيه للملك . ولا بدع ، فإن نفسية الجاهلي ، هي نفسية فروسية ، شديدة القسوة والإنفجار ، خاصّة في الدفاع عن الكرامة والفخر؛ فهو يقول:

ألا هبّي بصحنك فـاصبحينا ولا تُبقي خمورَ الأندرينـا
مشعشعةً ، كأنّ الحصّ فيها إذا ما الماءُ خالطها سَخينـا
أبا هند ، فلا تَعجَل عَلينا وَأنظرنا نخـبركَ اليقينـــا

ان نداءه يتخذ نبرة الرعونة والادّعاء ، خاصة بعد أن الحق بفعل أمر «فـــلا تعجل علينا» والبيت الأول ، هو بيت ادّعاء ، وقد بدا ذاك في وزنه وقافيته ، بالاضافة الى النون التي ترددت ثلاثاً (علينا – انظرنا – اليقينا) . الا ان الشاعر لم يلج بعد الى الفخر المباشر ، بل لا يعتم أن يتصدّى له بقوله :

بأنـّا نوردُ الرايات بيضـاً ونصدُرهنّ ، حمراً ، قد رُوينا

والشاعر في هذا البيت يعتمد على التورية والتلميح ، فهو لا يذكر الأشياء ويعيّنها بوضوح ، بل يشير الى البطولة من خلال ألملامح الخارجية . ان الراية البيضاء ، فالحمراء ، تلمح فيما بـين بياضها واحمرارها ، الى جميع ما يشخص في المعـــارك من تقتيل وسفك للدماء ، مظهرة في الآن ذاته فلذة من الفلذات الملحميّة التي لا تنفك تطالعنا بابتسار ، وخطف خلال المعلقات الجاهلية . ففي هـــذا البيت وفي سواه نلمح الخطوط الكبرى للملحمة او بالأحرى عنواناً من عناوينها . أما صورتها الكاملة ، ذات الظلال والأضواء والمشاهد الساطعة ، فقد لبثت مضمرة . واذا كان

هوميرس ، عرف التجزيء ، والتفصيل والملاحقة ، فان عمرو المّ بفلذات وخطر بأجواء راسماً بعض الخطوط القـــانية التي تذكرنا بنهر الدماء الذي يجري في الالياذة ، وفي سائر المـلاحم الطبيعية .

إلاّ ان الشاعر لا يعتّم ان يغشى القصيدة ببعض التفاصيل التي هي اكثر تخصيصاً من بيت الرايات البيض ، لكنها اقـــل توضيحاً مما نألفه فيمشاهد الملحمة الطبيعية . فها هو يصف الملك الذي يُجندلونه ، فكان هذا الوصف توضيح لما سبق . فبـــين الراية البيضاء والحمراء ، هنالك وجه الملك المعفّر الذي لم تحمه صولته من صولة بني تغلب . فالشاعر لا يتحدث عن الجند الذي قتلوهم ، لأن ذلك لا يدل على شدة الرهبـة . ان موت الجندي شيء طبيعي في الحرب ، اما موت الملك ، فهو الذي يـدل على الفاجعة ، ويعظـّم بني تغلب الذين فتكوا به .

ولعل الشاعر حرص على ذكر فتك أهله بالملوك ، لانه يهدد ملكاً ، محـاولاً ان يبث الرعب في نفسه من غضبة بني تغلب . فـكان من الطبيعي أن يقتصر في حديثه على الملوك وبطش بني تغلب بهم :

وسيِّد معشرٍ قـد توّجوهُ بتاج الملكِ يحمي المحجرينا
تركنا الخيلَ عاكفةً عليـهِ مقـّلدةً أعنـّتهـــا صفونا

وهكذا ، يمضي الشاعر متدرجـــاً ، كأن البيت اللاحق ، توضيح للبيت السابـق وتخصيص له . فالملك المعفر كان توضيحاً لانصباغ الرايات بالدماء. الا انه لايختلف عنهافي طبيعة الاسلوب

الذي يعبر عن المعاني من خلال المشاهد . وأشد ما تبدو هذه الواقعية ، في قوله :

وانزلنا البيوت بذي طلوح الى الشامات ، ننفي الموعدينا
وقد هرّت كلاب الحيّ منا وشذّبنا قتادةَ من يلينا

لقد انتقل الشاعر من التعميم الذي شهدناه في البدء والتخصيص الذي تطور اليه ، الى التجزيء والتدقيق ، عندما جعل الخيول ، تمر مدبرة مقبلة في بيوت الأعداء ، بينما قامت الكلاب بالهرير . إن ذكر هرير الكلاب ليس ضرورياً بحد ذاته لأن ضربة سيف واحدة ، فيها من قوة الدلالة على البطولة والفخر ، ما ليس يدل عليه نباح آلاف الكلاب . الا ان فضيلة الهرير هنا ، في انه يدل على الصدق والواقعية ، فهو يشخص المشهد ويضعه أمام عيوننا ، ولا يدعنا نتوهم ان المشهد مؤلف تأليفاً في حيلة ذهنية . وهذه التفاصيل عامة امتداد لجوّ المبالغة . بقدر ما تتضاءل التفاصيل وتستدق ، بقدر ذلك تسمو المبالغة ، وتبلغ الخارقة . لقد كان الألمام بالجزئيات ، بالنسبة للجاهلي ، وسيلة من وسائل التأكيد .

الا اننا اذ نتمعن في قول الشاعر :

وقد هرّت كلاب الحيّ منا وشذّبنا قتادة من يَلينَا

يتبين لنا الاختلال الفنّي الذي يشوب هذه القصيدة الفخرية خاصة ، والشعر الجاهلي عامة . لقد انتقل الشاعر انتقالاً مفاجئاً من هرير الكلاب ، الى تشذيب قتادة الأعداء . ولقد بدا ذلك الانتقال قاطباً مبتسراً ، دالاً بوضوح على ان الشاعر الجاهلي كان يهذي بالأفكار التي تعرض له ، عندما يتصدى لموضوع من

المواضيع . فليس ثمة تطور بين هرير الكلاب وتشذيب القتاد ، خاصة لأن الأول ينعـــم بالتجزيء والثاني يسرف بالتعميم . وهكذا ، فإن المعاني تجتمع على موضوع واحد ، موضوع الفخر دون ان تلتحم . وهذا يحقق ما ذهبنا اليه اذ قلنا ان الشاعر لم يكن ينظم الشعر وفقـاً لدربة داخلية عميقة ، كما نشهد في شعر النابغة ، بل ينساق انسياقاً غامضاً ، لما طبع به من ميل الى نسخ الملامح الجزئيـة وتنقل مفاجيء دون تصميم او دراية . فشعره بذلك كحياته .

لهذا ، فأن الصور التي يعبر بها عن افكاره هي منقولة دائماً عن المشاهد الجاهلية . فهو يصف قوة بني قومه في الحرب بقوله:

متى ننقـُلْ إلى قوم رحَانـَا   يكونوا في اللـّقاء لها طحينـا
يكونُ تفالهـا شرقيَّ نجد   ولهوتهـا قضاعةُ أَجمعينـا

هذان البيتان يشتملان على الجوِّ الملحمي بتعظيمها لقدرة بني تغلب على البطش. وآية المعنى ان الشاعر لم يكتف بصرعهم او التمثيل بهم وحسب بل انـه تخطى ذلك اذ سحقهم سحقاً . الفتك معنى عادي شائـع ، لكن سحق الاعداء كالرحى ، ارتفع بالقتل الى الاسطورة الملحمية ، لان رحى الطحين ، لم تعد حجراً كبيراً ، انمـا امتدت ، فأصبحت تتسع اتساع بـلاد بأ كملها. اما اللهوة فلم تعد حبوباً من القمح وانمـا اجساماً من البشر . وهكذا فإن هـذه الرحى ، بما شخص فيهـا من تعظيم لمعنى البطش ، تمثل لنا واقـع الصور الملحمية التي كانت شائعة في الفخر الجـاهلي والتي لم تكن تصدر عن ايمان

ما ورائي خرافي ، كما هو شأن الملحمة الاغريقيـــة ، بل عن حرارة الانفعال والنزوة . وقد يبدو لنا عمرو في هذه الصورة مغرّراً ، كاذباً ، مكثراً من الغلوّ ، لأننـا في عصرنا الواقعي لم لم نعد نسيغ هذا التوغل في التصوُّر اللامنطقي . والواقع ، أن الرصيد المنطقي هو ، ابداً واهٍ خلال هذه القصيدة ، لان طفرة الخيال والشعور تستبدُّ به . ولا بد لنا من الالتفات الى طبيعة الصورة التي شخصت خلال البيتين السابقين . فالشاعر قـد مثل الحرب بالرحى ، ولقد ألم زهير بهذا المعنى ايضاً بقوله :

وما الحرب إلا ما علمتم وذقتمُ وما هو عنها بالحديث المرّجم
تعرُكْمُ عَرْكَ الرحى بثقالها وتلقح كشافاً ثم تنتج فتُتْئِم

وهذه الصورة تطلعنا على ان الشاعر يستعير تشابيهــه من الواقع الذي يعايشه . فلو كان عمرو وزهير خبرا بيئة غير البيئة الجاهلية المادية ، لكانا تمثلا الحرب بغير هذه الصورة . فالشاعر يعبر عن ذاته من خلال ما يتخذه من البيئة المادية والاجتماعية . وهذا ما نشير اليه عندما نقول ان الاجواء الفخرية الملحميــة تعبر عن بيئة الشعب البدائي ونفسيته .

الا ان القصيدة بالرغم من اختلافها بين التعمــــيم والتجزيء والتفصيل ، فانها ليست مرتبطة بوحدة عضوية يتطوَّر ويمتـد منها اللاحق في السابق . ذلك انه يمكننا ان نعبث بنظـــام الأبيات ، دون ان يختل المعنى . فالشاعر يصنف المعاني حول موضوع الفخر ، لكنها غير مرتبطة بعضاً ببعض ارتباط التطوُّر والتوالد . فهو يقول :

وان الضغنَ بعد الضغن يفشو عليك ويخرج الداءَ الدفينـا
ورثنا المجد قد علمت معـــدٌّ نطاعن دونـه حتى يلينـا
ونحن إذا عماد الحيِّ خرَّت عن الأخفاض نمنع من يلينا

فهذه المعاني تعنى بموضوع واحد هو موضوع الفخر ، لكنها ليست منظمة بلاحقة أو اسبقية ، اذا زال منها بيت او اختلّ ، يزول المعنى . فالبيت الاول يمكن ان يعقب في الاخير ، والبيت الاخير يمكن ان يشخص في البدء . ولعل استقلال البيت خلال القصيدة الجاهلية ، ناتج عن استقلال الفرد عبر القبيلة او عن عدم استقراره في معيشته . وقد اتت القصيدة الجاهلية شبيهة بالقبيلة من حيث تركيبها الداخلي . انها مجموعة من الابيات التي لا لحمة لها ، كما ان القبيلة مجموعة من الافراد الذين لا توحد بينهم. وهكذا فان البيئة الجاهلية أثرت في القصيدة بوجهين متقاربين : التحول من موضوع الى آخر واستقلال البيت عما قبله وما بعده. الا ان هذه القصيدة بالذات تمتاز عن سائر قصائد الشعر الجاهلي بانها قليلة الاستطراد بالرغم من انها تصدّت في مطلعهـــا الى الطلل والغزل. فامرؤ القيس خلال معلقته لم يكد يدع موضوعاً من مواضيع الشعر الجاهلي دون ان يتصدّى له ، وكذلـــك طرفة ولبيد . اما عمرو فقـــد اوشك ان يقتصر على الفخر من دون سواه ، متابعـــاً حديثه عن مفاخر اهـــله حتى يبلغ ابياتاً تبدو فيهـــا الصور الملحمية بأبشع مظاهر الفتك والوحشية :

نشقُّ بها رؤوس القوم شقاً ونخليها الرقاب فيختلينـــا

كأن جماجم الابطال فيها وسوق بالاماعز يرتمينا
نحز رؤوسهم في غير برٍّ فما يدرون ماذا يتقونا
كأن سيوفنا فينا وفيهم مَخاريقٌ بأيدي لاعبينا
كأن ثيابنا منّا ومنهم خضبن بأرجوان أو طُلينا

ان الملحمة تظهر في هذه الابيات من خلال الصور ، بالإصافة الى الألفاظ التي تبثُّ فينا الرعْب والشعور بالوحشية والقساوة . فلفظة « تشقُّ » التي سلطها على الرؤوس ، تضعنا أمام مشهد راعب مفجع ، خاصة عندما نتمثَّل السيف الذي ينحدر على الرأس ليشطره شطرين . ويكاد الشاعر لا يفجعنا بهذه الصورة التي تمثل نفسية تلك الشعوب المفترسة ، حتى يتحدث من جديد عن ملحمة تلك الوحشية التي تغتذي بالثارات والحقد . فقد جعل رقاب اعدائه ، كالخلاء ، أي الحشيش . فأية ملحمة أعظم من تلك التي تعتاض عن الحشيش بأعناق البشر ، والتي تفخر بتقطيع الرؤوس . لقد غدت بذلك ، تعبيراً عن بقايا الوحش القديم في الانسان .

والصور جميعاً ، خلال هذه القصيدة مصبوغة بالنجيع .انها نموذج أو تشخيص ماديّ لواقع النفس ، عصرئذ ، بما فيه من غريزة الافتراس والنقمة . إن شق الرؤوس والتقتيل في الخارج ليس سوى تعبير عن الضغينة والحقد في الداخل . هكذا، تجري الامور في الفن . ان الشعور يعاني الاشياء بشدة وامتعاض ثم تتّحد النفس ، جميعاً ، بلحظة من النشوة ، فيتولى الخيال ظلال الشعور ، ينفذ بها الى غرفته المظلمة ، ويفتّق لها بشكل مادي

منظور ، بعد ان كانت وجيبـاً ، وشعوراً غامضاً في النفس . لهذا فان عمرو ، قد لا يكون شقّق الرؤوس ، وقطع الاعناق ، وانما هو يتوق الى هذين الامرين اللذين تمثلا له بهـذا الشكل . وهكذا ، فان الوحشية في النفس ، تمثلت في الخارج بمشهـد الدمار والتقتيل والاشلاء .

وينبغي ان ننتبه الى الاختلال الفني الذي يشخص خـلال هذه الابيات . ففي الابيات الاولى أسرف الشاعر باظهار قوة بطش بني قومه ، حتى أنه لم يعد يمكننا ان نتمثـل البطولة والفروسية ، الا فيـهم . إلا أنه بعد ذلك ، بعد شق الرؤوس وتقطيع الرقاب ، يعود فينحدر الى واقعيـة وتشابيه تسفح أسطورة الملحمة التي ما فتىء يجتهد ويُعنى بتصويرها لنا . فهو يشبّه تحارب بني قومه مع اعدائهم بقوله :

كأن سيوفنا فينـا وفيهم مخاريقٌ بأيـدي لاعبينا
كأن ثيابنـا منا ومنهم خُضبن بأرجوان أو طلينا

فالجنود من بني قومه يتحاربون مع جنود الاعداء ، كما يتحارب الصبية بمجاذيف الخشب . فكيف يتفق هـذا التمثيل الساذج مع الملحمة الوحشية التي كانت منذ برهة تشق الرؤوس شقـاً . بل كيف تكون الجماجم كالاغنام في السهل ، والقتال الذي يجري شبيه بقتال الصبية الذين يعبثون بالمخاريق ?? ولعل البيت الثاني ليس اقل اسفافاً من البيت الاول . فهو يقول ان ثيابهم ، بالاضافة الى ثياب الاعداء ، كانت مصبوغة بارجوان الدم . وذلك يعني ان بني قومه يعانون مصير الاعداء الذين كان يفتخر عليهم

منذ برهة . ولم يعُد بنو قومه الذين يشقون الرؤوس ، بل ان الاعداء ايضاً هم الذين يشقون رؤوس بنى تغلب . وذلك جميعاً يدلنا على ان الشاعر الجاهلي كان يهذي بمعانيه ، دون ان ينظم اللاحق بالنسبة لعلاقته بالسابق . والاسطورة التي كنا نحيا في قلبها منذ برهة ، نراها الآن اضمحلت وتعفت آثارها وبينا نحن في قلب معركة البطولة ، إذا بنا مع صبية ذوي مخاريق خشبية . هذه هي الآفة الكبرى التي تعتور قصائد الجاهليين من الناحية الفنية . ذلك ان استقلال البيت في قصائدهم ، جعل الشاعر يلمّ بابيات لاحقة تسفّه وتناقض ما سبق ان المّ به في الابيات السابقة ، دون ان يجد في ذلك حرجاً ودون ان يتنبَّه له . فاين هذا الهذيان الذي لا رصيد منطقياً له ، مما سوف نشهده في شعر ابن الرومي الذي خبر الهندسة ، فيما بعد ، وأفاد من نعمة الاستقرار والحضارة . لقد بدت قصيدة ابن الرومي منتظمة بهندسة فنية ، قائمة ، يرتقي فيها المعنى اللاحق على المعنى السابق ، ويكاد الشاعر لا يوفي الى ذروة القصيدة ، حتى يوفي في الآن ذاته الى ذروة التجربة التي يعانيها ويعبِّر عنها . فهو اذ يهجو وجه عمرْو يستهلُّ بتشبيه وجهه بوجه الكلب ، ثم ينتهي فيجعل الكلب افضل منه ، كما انه يلم بثلب اهله ، حتى يوفي في نهاية القصيدة الى تشبيهه بطلَل إنسان ، أو بتفعيلة باطلة ، لا مجدية . هذا المثل يظهر لنا الفرق في طبيعة الاسلوب بين الشاعر الجاهلي والشاعر المتحضر .

بعد هذه الابيات يعمد عمرو الى التفصيل متحدثاً عن شباب قومه وشيبهم المجربين في الحروب والذين يرون ان القتل مجد :

بشبان يَرَوْنَ القتل مجداً وشيبٍ في الحروب مجربينا
برأس من بني جشم ابن بكر ندقُّ بـه السهولة والحزونا
الا لا يعـــلم الاقوامُ إنا تضعضعنا وإنا قــد ونينــا
ألا لا يجهلَـنْ أحــدٌ علينا فنجهل فوق جهلِ الجاهلينا
بأي مشيئة عمرو ابن هنــد تطيعُ بنا الوشاة وتزدرينا
بأي مشيئة عمرو ابن هنـد نكون لقينكم فيهـا قطينا
تهددنا وتوعدنا رويـــداً متى كنــا لأُمك مقتوينا

هــذه الابيات تختلف عن تلك ، بروح الاسلوب الذي كثر فيه التفصيل بذكر الشبان والشيب واسماء العلم . فبنو جشم بن بكر ، وعمرو بن هند يذكروننا بالاليــاذة حيث نرى الابطال يتحدثون باسماء ابطال كانوا معروفين تمام المعرفة بالنسبة اليهم . وهذه الاسماء هي التي تجعل الملحمة ذات تأثير لانها تربط حوادثها الاسطورية الخارقة بالواقع .انها بقايا التاريخ في ضباب الملحمة . الا ان فضيلة هذه الابيات من الناحية الفنية تظهر في دلالة الحروف ومـــا تشتمل عليه من زخم حماسي . ان تكراره لِ « الا » الاستفتاحية مرتين متتاليتين ، «الا لا يعلم الاقوام» «الا لا يجهلن » دل على كثير من الاعتداد والتجبر والادعـاء . فهي تشتمل على معنى المجاهرة بالتحدي . وقد بـدا عمرو كأنه خطيب يقف في الأعداء ، يعلن تحديّه لهم وطلبهم للمبارزة .

ومما ينبغي ان نلحظه تكرار نون المتكلم ، وهي حرف مشدّد ، كثير الصخب ذو رنّة مثيرة ، قاسية . ففي البيت الاول وردت أربعاً ، وقد اشتدت في الثاني اذ قال « لا يجهلن » . فهذه النون التوكيدية المسبقة بما اسلفنا من حروف مجهورة حماسية شديدة ، تؤثر كثيراً في بثّ الحماسة واجوائها . ان القصيدة الجاهلية تبدو من خلال هذه الابيات او بالاحرى من خلال هذه القصيدة ، خطابية النبرة ، تعتمد المعنى العنيف والحروف والالفاظ الصخّابة ، التي تشتد وتنزو ، حتى يؤخذ السامع ويتأثر برنة الالفاظ والضجيج ، قبل ان يفهم المعنى . فكأن الحماسة هي في الحروف والالفاظ ، وفي صياغة العبارة قبل ان تكون في المعنى المجرّد . ومهما يكن ، فان أسلوب الشاعر يتنوع ، فبعد ان يكون جارياً على الاسلوب المباشر ، نراه يتوسل ، فجأة بالاسلوب غير المباشر ، حيث يكثر النداء «الا» ويكثر التساؤل « بأي مشيئة ... بأي مشيئة » ونراه ايضاً يعود الى اسلوب التقريع الذي ينتفض بالنقمة والوتر . «رويداً ، متى كنا لامّك مقتوينا» . اما التكرار ، فانه تعبير عن النفسية البدائية التي كانت تؤكد من خلال المراجعة . وقد شهدنا نماذج منه في شعر المهلهل والخنساء ، كما اننا نشهد نماذج منه في الشعر البدائي ، جميعاً . وهو الى ذلك يوافق طبيعة الاسلوب الخطابي الكثير الالحاح .

بعد هذه الأبيات ، ينصرف الى ذكر اجداده ، فيقول :

وُرثنا مجدَ علقمة ابن سيفٍ   أباح لنا حُصونَ المجدِ دينا

ورثنا مهلهلاً والخيرَ منـــه زهيراً نعم ذخر الذاخرينـــا
وعتّابـــاً وكلثوماً جميعـــاً بهم نلنا تراث الاكرمينـــا
ومنـــه قبـــله الساعي كليبٌ فأي المجد الا قد ولينـــا
متى نعقد قرينتنا بحبـــلٍ نجذ الحبلَ او نقص القرينا

هذه الأبيات تحقق لقا ان الشاعر الجاهلي، كان محامياً يدافع عن قضية قبيلته ، ويؤلب البراهـــين التي تظهر أن الصواب بجانبه . إن اجداده من علقمة ابن سيف ، والمهلهل ، واخيـه كليب بالاضافة الى زهير وعتاب وكلثوم ، هؤلاء اشبه بالأعمدة التي يبنى عليها صرح الملحمة . وقد تضاعفت بذلك بطولته ، لانها ليست فيه وحسب ، بل في أجداده ايضاً . فكأن حياته وحياتهم ، اسطورة مستمرة من البطولات والعظمة . لعل هذا ما يتفق مع روح الملحمة، لانها كما شهدنا في الالياذة تتغنى بالبطولة الفردية ، لكنها ، عبر هذه البطولة الفردية ، تتراءى لنا أجيال من البطولات التي تمرس بها شعب بأكمله . فالملحمة تغدو بذلك وجهاً اسطورياً لقوة تنازع البقاء والمصير . ولعل ما نشهده فيها من شدّة الفتك ، انما هو مظهر من مظاهر الوحشية التي يفترس بها القوي الضعيف .

ومهما يكن من امره فان ما نشهده في القصيدة الجاهلية من اجواء الغلو والاسراف ليس سوى لمحـــة أو فلذة مما نشهده في الملحمة الطبيعية . وقد يكون من التجوز انتعتبر ما نعثر عليه في قصيدة عمرو ، وسواه ، ملحمة ؛ لأن الملحمة الطبيعيـــة ، تقتضي بيئة، وحضارة ونعـــيم استقرار ، لم يكن متيسراً لدى

الجاهليين . ولقد نفذ عمرو الى ذروة هذه الاجواء الملحمية في قوله :

وإنا المانعُونَ لما أَرَدْنا   وانا النازلون بحيثُ شينا
وإنا التاركُون إذا سخطنا   وإنا الآخذُونَ إذا رضينا
وإنا العاصمون إذا أُطعنا   وإنا الغارمون إذا عصينا
ملأنا البر حتى ضاق عنا   وظهر البحر نملأه سفينا
لنا الدنيا ومن اضحى عليها   ونبطش حين نبطش قادرينا
إذا بلغ الفطام لنا صبي   تخرّ له الجبابر ساجدينا

لا شك اننا نشعر اثر قراءتنا لهذه الابيات انها تضعنا في قلب تجربة خاصة ، تذكرنا بالأجواء التي نألفها في الملحمة . ذلك أن الاعمال التي تتحدث عنها هي أعمال بطش وفتك وحروب ، الا اننا إذ نتفرس بها ونقيمها وفقاً للنواميس العامة الشائعة للملحمة الطبيعية ، فإننا نتحقق انه ثمة فروق هامّة بين هذه المعلقة والملحمة . فالخارقة التي هي العنصر الهام في الملحمة ، لا تكاد تشخص في المعلقة بشكلها الطبيعي . ذلك انه لم يكن ثمة حدود في عالم الاغريق بين الواقع والخيال ، ينتقلون من الاول الى الثاني ، دون ان يشعروا باستحالة هذا الانتقال . اما الجاهلي فلم يكن لديه هذا التوحيد بين عالم الخيال والواقع . وما نلقاه لديه من الأسراف بالغلو، ليس سوى حدة شعور بالأشياء التي تعتريه. وإذا ما اردنا ان نتحرى عن الخارقة ، فانها تبدو لنا خارقة انسانية ، وليست خارقة ما ورائية . الخارقة في المعلقة هي في قوة بطش بني تغلب وليست في تدخل الجن والشياطين

لمؤازرتهم .

وهناك فرق جوهري آخر ، اذ نكاد لا نلمح اثراً للشاعر نفسه عبر الملحمة الطبيعية ، فهو يتغنى ببطولة سواه من بني قومه. اما عمرو ، فهو بطل الملحمة ، كما انه في الآن ذاته شاعرها . والموضوع خلال هذه القصيدة تحوّل من الشعب والاسطورة الى الفرد والواقع ، والملحمة الطبيعية ليست تاريخاً بل مارد اسطورة ينبثق من قمقم حادثة تاريخية . وهي لا يمكن ان تنشأ غبّ الحادثة مباشرة ، وانما تقتضي كثيراً من التداول ، وبُعداً في الزمن ، حتى تكتسي بالوهم ، ويقدر لها الاختمار الزمني الذي يحول واقعها الى اسطورة . فبين الحادثة التاريخية وملحمتها ، ينبغي ان يكون ثمة قرنان او اكثر من البعد الزمني . اما قصيدة عمرو ، فهي وليدة اللحظة المباشرة . لقد ارتجلها ارتجالاً او على الاقل نظمها في زمن كثير الاقتراب من زمن حدوثها .

وثمة ايضاً فرق هام بين الملحمة الطبيعية والمعلقة . ففي الألياذة نشهد كثيراً من الاشخاص الذين تتضح شخصيتهم ويظهرون بسيرتهم المفصلة . هناك مثلاً ، اخيل وهكتور ، واغا ممنون ، وباريس وهيلانة . اما الأشخاص في هذه المعلقة وفي سواها ، فهم مغشيون ، كثيرو الضباب ، لا تظهر منهم سوى ملامح غامضة ، واحياناً لا نعرف منهم سوى اسمائهم . واذا اضفنا الى هذه الفروق ، مميزات الشكل اي الأبواب والفصول والمشاهد التي تشخص في الألياذة ، دون ان تتيسر لها المعلقة ، يتحقق لنا ان قصيدة عمرو بن كلثوم ليس فيها من شروط الملحمة

سوى التشابه في الأجواء والأعمال الخارقة ، دون ان تتفق معها في الشروط الجوهرية الاخرى. لهذا فان هذه القصيدة تمثل واقع الشاعر الجاهلي، كما كانت الألياذة ، تمثل واقع الشاعر الأغريقي، وذلك نظراً لأختلاف البيئة والحضارة فيما بينهما .

الفخر في الشعر الاسلامي

رأينا ان التفاخر غلب على الشعر الجاهلي بتأثير واقع البيئة والحياة . ولم يكن عصر النبيّ بأقل توتّراً من العصر الجاهلي ، فالتنازع اشتدّ بينه وبين القرشيين ، وقام التناحر بالشعر الى جنب التناحر بالسيف . ولعل أهم الشعراء الذين انصرفوا إلى الفخر في هذه الفترة وأوشكوا ان يتخصصوا به ، كان حسان بن ثابت ، شاعر النبي . وقد كان من الخزرج ، سكان يثرب . ولما هاجر النبي وناصره اليثربيون ، نهض حسان يهاجي اعداء النبي متفاخراً بالدين الجديد .

وثمة قصائد تصدى فيها حسّان للفخر ، قبل ان يلتزم الدفاع عن الدين الجديد ، وقد بدت ، على غرار الشعر الجاهلي ، تسرف في الالمام بمعاني الفخر الكلاسيكي ، كالشجاعة والكرم وقرى الضيف ، وما اشبه من معان لا تنفك تتكرر في قصائد الفخر .

ويخيل الينا ان ان شعره ، غالباً ، يكاد لا يختلف عن الشعر الجاهلي في طبيعة الاسلوب ، بالاضافة الى طبيعة الصور والمعاني .

فهو يستهل ، عــادة ، بالوقوف على الطلل والغزل ، ووصف الناقة حتى ينصرف بعدئذ ، الى الفخر . ولعل اهم قصيدة له في هذا الشأن ، القصيدة الميمية التي أنشدها في سوق عكاظ ، وقد تحدث فيها عن كرم بني قومه بقوله :

إذا اغبرَّ آفاقُ السماء وأمحَلت
كأن عليهَا ثوبُ عصب مسهَّمَا
حسبتَ قدور الصاد حول بيوتنا
قنــابل دُهماً في المحلة صيمــــا
يظل لديهـــــا الواغلون ، كأنما
يوافون بحراً من سميحة ، مفعما

فهم إذا أمحلت الأرض، وظهرت بوادرالجدب، رأيتقدور النحاس حول بيوتهم، كأنها جماعات من الخيل المنتصبة . فالقوم يدخلون اليهـــا ، ويأكلون ويشربون ، كأنهـم أقبلوا على بئر غزيرة . فالشاعر كما ترى لم يتحدث عن كرمه ، الا فيما تُمْحل الأرض ويعروها الجفاف ، أي عندما يصعب تحصيل الرزق ، فإنهم يؤُوونَ الناس في بيوتهم ، وذلك أدلُّ على الكرم.

ومن ثمة ينبري الشاعر الى ذكر شجاعتهم بقوله :

متى ما تزَّنا من معــــدٍّ بعُصْبَةٍ
وغسَّان ، نمنَع حوضَنَا أن يهدَّما
بكلِّ فتى عاري الأشاجع لاَحهُ
قراع الكُماةِ ،يرشح المسك والدما

وهو كذلك يعود فيتحدث عن قراهم للضيف من جديد ،

فيقول :

وانا لنُقري الضيفَ إن جـــاء طارِقاً
مِنَ الشَحْم ، ما أمسى صحيحاً ، مسلَّمَا

وهذه المعاني ، ليست سوى تمضُّغ يسير للمعـاني القديمة ، الا ان الشاعر اتصل فيما بعد بالنبي ، كما اسلفنا، فجعل يلمُّ ببعض المعاني الجديدة دون أن يُعْنى بالصياغة عنـــاية وافية ، حتى غلبت على شعره السهولة . فبعد موقعة بدر قام عبد الله ابن الزبعري يبكي قتلى بدر بقوله :

ماذا على بدْرٍ ، وماذا حَولـَه
من فتية بيضِ الوجوهِ كِرامِ
تركوا نَبيِهاً خلفهم ومنبِّهـــاً
وابْنَي ربيعةَ خيرِ خصْمِ فئامِ

فالشاعر يتفجَّع على نبيه ومنبّه من بني سهم وابني ربيعة شيّة وعتبة . وما عتم ان تصدى له حسّان بقوله :

ابكِ ، بَكَتْ عيناكَ ، ثمَّ تبادَرَتْ
بدم تعـل غروبُهـــا سجّام [1]
مـــاذا بكيتَ به الذين تَتَابعوا
هـــلا ذكرت مكارم الأقوام [2]
وذكرت منّـــا مـــاجداً ذا همَّة
سمْحَ الخلائقِ ، صادِقِ الإقدَامِ

---

١ ــ الغروب ــ مجاري الدمع ــ سجام = سائل
٢ ــ تتابعوا = القوا نفسهم للتهلكة

أَعني النبيَّ ، أخا المكارم والنَدَى
وأبرَّ مـن يُولى على الأقسَامِ
فلمثلِهِ ولمثل مـا يَدْعـو له
كان المدَّح ، ثم غير كَهَامِ

انت ترى ان الشاعر يتصدى لتسفيه قول الشاعر المشرك ، وفي الآن ذاته ، يمتدح النبي . وهذا المعنى هو من معاني الفخر الجديد ، التي افادها الشاعر من الموضوع الجديد الذي تصدّى له . ويبدو لنا ايضاً ان ميزة الفخر الأموي غدَت ظاهرة المعالم في هذه القصيدة ، إنه فخْر الترافع والدفاع والردّ على الخصوم ، او ما يسمونه النقائض التي تخصَّص بها ، فيا بعد جرير والأخطل والفرزدق .

الفخر في النقائض :

إن النقيضة هي القصيدة التي يتصدّى فيها شاعر للردّ على شاعر آخر ، مسفّهاً أقواله ، مادحاً القوم الذين هجاهم بمعان تخالف ، غاية المخالفة ، المعاني التي كان الشاعر الأول قد ألمّ بها في ثلبهم .

وهذه النقائض تقرب كثيراً إلى ما نشهده في عصرنا من ترافع المحامين ، او تناظر الجرائد . وينبغي ان تلتزم النقيضة الوزن والقافية اللذين اختارهما الشاعر الأول .

وقد يخيَّل أنّ الأمويين همأوّل من عرف النقائض الشعرية . إلاّ أنّ النقيضة عُرفت منذ العصر الجاهلي واوشكت ان تستقيم

حدودها في العصر الإسلامي ، كما رأينا في شعر حسان بن ثابت . ولعل اشتهار الشعراء الامويين بها نتج عن تخصصهم فيها ، واقتصارهم عليها ، في تفاخرهم وتهاجيهم . ولا مجال للإطالة بدرس النقائض في هذا الكتاب ، لضيق المجال . لهذا ، فإننا سوف نقتصر على دراسة بعض نقائض الفرزدق لأنه اشتُهِر في الفخر أكثر من الأخطل وجرير ، وقد حَكمَ له في ذلك الرواة والنقاد العرب . الا اننا بالرغم من ذلك سنُلمّ ببعض المعاني الفخرية التي شخصت في نقائض الأخطل وجرير ، بلمحة مجتزأة ، وذلك استيفاءً لضرورة البحث .

الفخر في شعر الاخطل

لم يلج الأخطل في التنازع بين جرير والفرزدق ، إلا بعد ان كانا قد تواقعا بقصائد كثيرة ، فارسل ابنه يستطلع أخبارهما ، فجاء يقولُ له «رأيت الفرزدق يَنحَتُ من صخر وجريراً يغرف من بحر» . فحكم للثاني على الأول . ثم قدم الأخطل الكوفة على بشر بن مروان ، فبعث اليه قوم الفرزدق بدراهم وحملان وكسوة وخمر ، وقالوا له «لا تُعِنْ على شاعرنا واهجُ هذا الكلب الذي يهجو بني دارم» . فلما دخل الأخطل على بشر وسأله عن الفرزدق وجرير ، قال الأخطل : أصلح الله الأمير «الفرزدق أشعر العرب» . فردّ عليه جرير وقام التهاجي بينهما . الا ان السبب كان أبعد مما يبدو ، ظاهراً . ذلك ان جريراً كان يدافع عن القيسيين ، وهم ألد أعداء بني تغلب . والقيسيون ، كانوا

قبائل مُضَريَّة جاءت إثر الإسلام الى الجزيرة العربية ، وجعلت تنازع التغلبيين على أرزاقهم . فلما قُبِضَ معاوية أَبَتْ القيسية مبايعة يزيد فتَسَعَّرت الحرب بين الأمويين والقيسيين ، وقد وقف التغلبيون إلى جانب الأمويين . وظلت الحروب سجالاً حتى قُدّر لعبد الملك بن مروان أن يقضي عليهم بنصرة التغلبيين. لهذا ، فقد كان التهاجي بين الأخطل وجرير يقوم على عصبية سياسية .

ولقد جرى الأخطل في نقائضه ، غالباً ، على غرار يكاد لا يحيد عنه . فهو يستهل بالمقدمة التقليدية ، متحدثاً عن الطلل والأحبّة والفراق وما أشبه ويعرض لمدح الامويين ، حتى ينتهي الى التفاخر ببطولة بني قومه ، هاجياً ، في الآن ذاته ، القيسيّين ، متعاليا عليهم ، دون ان يغفل عن كليب بن يربوع الذي لا يقل هجاؤه لهم عن هجائه للقيسيين . ولعل أهم نقيضة من نقائضه هي الرائية التي عرض فيها لمدح الخليفة عبد الملك والتفاخر ببني قومه اذ يقول :

بني أُميَّـــةَ ! اني ناصـحٌ لكمُ ،
فلا يبيتنّ فيكم آمناً زُفَـرُ ؛ [1]
واتّـخذوهُ عدوّاً ، إنّ شاهدَه ،
وما تغيَّبَ من أَخْلاقهِ ، دَعَرُ . [2]

---

١ ــ زفر : هو ابن الحرث بن كلاب الكلابي
٢ ــ الدعر : الفساد : من العود الداعر : الـكثير الدخان .

إن الضّغينةَ تلقاها ، وان قدُمت،

كالعرّ يكمُن حيناً ثمَّ ينتشرُ . [1]

وقد نُصِرتَ ، اميرَ المؤمنين ، بنا ،

لما أتاكَ ببطن الغوطةِ الخبرُ :

يُعرّفونَك رأسَ ابن الحُبابِ ،وقد

أضحى، وللسيفِ في خيشومِه أثرُ ، [2]

لا يَسمَع الصوتَ ،مُستكّاً مسامعُه،

وليس ينطق حتى ينطقَ الحجَرُ ؛ [3]

أمسَت الى جانبِ الحَشّاك جيفتُه ،

ورأسُهُ دونَهُ اليَحموم والصوَرُ؛ [4]

يسأله الصَّبرُ من غسّان ، اذا حضروا،

والحزنُ : كيفَ قراكَ الغِلمةُ الجَشرُ؟ [5]

---

١ ــ العر : الجرب .

٢ ــ ابن الحباب : عمير بن الحباب من قيس عيلان ، قتلته تغلب منتصرة للامويين . الخيشوم اعلى الانف .

٣ ــ استكت المسامع : صمت

٤ ــ الحشاك : نهر في ارض الجزيرة بين دجلة والفرات يصب في دجلة : وقيل : هو تل . اليحموم : موضع بالشام . الصور : موضع بالشام ، وقيل قرية على شاطيء الخابور .

٥ ــ الصبر : بطن من غسان . الحزن : حي من غسان ايضا : الجشر : القوم يخرجون بدوابهم الى المراعي ويبقون مكانهم ولا يأوون الى البيوت . كان عمير ابن الحباب يحتقر بني تغلب ويقول : « ليسوا بشيء انما هم جشر لي آخذ منهم ما شئت » . فقال الشاعر اننا حملنا رأس ابن الحباب حتى اذا رأيت قبائل غسان سألته : كيف رأيت قرى غلمة الجشر ؟

والحرثَ بن ابي عوفٍ ، قد لعِبنَ به
حتى تعاوَرَه العِقبانُ والسُّبرُ ؛ [1]
وقيسَ عَيلانَ ، حتى اقبلوا رقصاً ،
فبايَعوكَ جهاراً ، بعد ما كفرُوا .
فلا هدى الله قيساً من ضلالتِهِم !
ولا لعاً لبني ذكرانَ ، اذ عَثروا ! [2]
ضجوا من الحربِ اذ عضت غواربَهم ؛
وقيسُ عيلانَ من أخلاقِها الضَّجَرُ
كانوا ذوي إمّةٍ ، حتى اذا علِقت
بهم حبائلُ للشيطانِ ، وابتهروا ، [3]
صُكّوا على شَارفٍ صعبٍ مراكبَها
حَصّاءَ ، ليس لها هُلبٌ ولا وَبرُ . [4]

---

١ ـ الحرث بن ابي عوف : رجل من من بني عامر بن صعصعة • الشبر : طائر شبيه بالصقر • تعاوره العقبان والسبر : تداولته .
٢ ـ لا لعاً لفلان : لا اقامه الله . ذكوان : رهط عمير بن الحباب من بني سليم •
٣ ـ ذوي إمة : ذوي نعمة . ابتهروا : كذبوا . الابتهار الكذب وان ترمي الرجل بما ليس فيه . ـ يقول ان قيس عيلان كانوا ذوي نعمة حتى اذا خدعهم الشيطان فاخذوا يتقولون الاقاويل على الامويين ، صكوا على شارف ... (البيت التالي) •
٤ ـ صكوا : حملوا • الشارف : الناقة المسنة الهرمة ، يريد خطة صعبة . حصاء : لا وبر لها • الهلب : الشعر كله ، او شعر الذنب •

ولم يزلْ بسُلَيم امرُ جاهلهـــا ،

حتـّى َتعايَى بها الايرادُ والصدَرُ ؛[1]

إذ يَنظرونَ وهم يجنونَ حنظلَـهم ،

الى الزّوابي، فقلنا: ُبعدَ ما نظروا ! [2]

كـــرّوا الى َحرّتَيهم يَعمرونها ،

كما تكرّ الى اوطانها البَقرُ ؛ [3]

واصْبَحَت منهم ِسنجارُ َخاليةً ،

والمَحْلبيّاتُ،فالخابورُ ، فالسُّرَرُ. [4]

وما ُيلاقُونَ َفرّاصاً الى نسبٍ ،

ُحتّى ُيلاقيَ َجديّ الفَرقد القمرُ ، [5]

---

١ ــ جاهلها : يعني عمير بن الحباب الذي افسد سلمياً بآرائه فاوقعها في مصيبة صعبة المخارج .

٢ ــ حنظلهم : استعاره للحرب لمرارته . الزوابي : انهر اربعة في العراق ، مفردها الزاب : كان يسكن بينها بنو تغلب . بعد ما نظروا : اي بعد ما املوا .

٣ ــ الحرة : موضع فيه حجارة حارة بركانية سوداء ؛ ويريد هنا حرة بني سليم وهي في عالية نجد : وقد تثنى العرب المفرد .

٤ ــ سنجار : مقاطعة في شمالي العراق . المحلبيات : هي المحلبية : بليدة بين الموصل وسنجار . الخابور : من سواعد الفرات المشهورة . السُرر : ارض بالجزيرة .

٥ ــ فراص بطن من تغلب . جدى الفرات : نجم الى جنب القطب يدور مع بنات نعش تعرف به القبلة ، ومن الممتنع ان يلتقي والقمر .

ولا الضباب اذا أخضرّت عيونهم ؛
ولا عُصيّة ؛ إلا انّهم بَشَرُ ! [1]

ومـا سَعى فيهم ساعٍ ليدْرِكَنا
الاّ تقاصر عنّا ، وهوَ مُنبهِرُ . [2]

وقد أصَابت كلاباً ، من عَداوَتِنا ،
احدى الدّوَاهي التي تُخشى وتُنتَظـرُ .

وقد تفَاقَمَ امرٌ غـير مُلتئمٍ ،
ما بَيننا رجمٌ فيه ولا عِذَرُ . [3]

امّـا كُليب بن يَربوعٍ فليسَ لهمْ
عندَ التفارُطِ ، إيرادٌ ولا صَدَرُ ، [4]

مُخلـّفونَ ، ويقضي الناسُ امرَهمُ ،
وهم بغيبٍ ، وفي عمْياءَ ما شعَرُوا ، [5]

---

١ ـ الضباب : معاوية بن كلاب من قيس عيلان ، وكان يزعم ان باهلة من تغلب . اخضرت : اسودت . عصية بطن من بني سليم .

٢ ـ انبهر : انقطع نفسه وتتابـع من الاعياء .

٣ ـ ج . عذرة ، اسم بمعنى المعذرة .

٤ ـ كليب بن يربوع : قوم جرير ، وهم من بني تميم . التفارط : التقدم في طلب الماء .

٥ ـ مخلفون : يظلون وراء الناس ، او في بيوتهم ، لا يشعرون بحركة الحي وما يبحث فيه رجاله من امور خطيرة .

مُلَطَّمونَ بأعقارِ الحياضِ ، فما
ينفك منْ دارمي فيهمُ أثر . [1]
بئسَ الصُّحاةُ وبئس الشَّربُ شربُهم !
اذا جَرى فيهم المُزَّاءُ والسَّكَرُ . [2]
قَومٌ ، أنابت اليهم كلّ مُخزيةٍ ،
وكل فاحشةٍ سُبَّت بهـا مُضرُ ، [3]
على العِيارات هَدّاجونَ ، قد بلَغَت
نجرانَ ، او حُدّثت سَوءاتِهم هَجرُ ؛ [4]
الآكلونَ خَبيثَ الزاد ، وحدهم ،
والسّائلونَ بِظهرِ الغَيبِ : ما الخَبَرُ ؟

* * *

ومـا غُدانَةُ في شيءٍ مكانهمُ
الحابسو الشاءَ ، حتى يفضُلَ السؤرُ ؛ [5]

---

١ – اعقار : ج . عقر : مؤخر الحوض حيث تقف الابل اذا وردت ، او مقام الشارب منه . دارمي : نسبة الى دارم : جد الفرزدق ، وهو ابن عم كليب ، جد جرير .

٢ – المزاء : الخمر اللذيذة الطعم . السكر الشراب المسكر .

٣ ـ انابت لجأت ، تناهت .

٤ ـ العيارات : ج . العير : الحمار . هدج مشى مشية الشيخ . نجران : بلد بين الحجاز واليمن . حجر : قاعدة البحرين .

٥ ـ غدانة ابن يربوع . السؤر : ج . سؤر ما فضل في الاناء : بقية الشيء .

يتصلون بيَرْبوعٍ ، ورَفـدهم ،
عندَ الترافـُدِ ،مَغمُورٌ ومُحتقـَرُ ؛[1]

صُفر اللِحى من وقـُودِ الأدْخِنات، اذا
رد الرفادَ وكفّ الخالب القِـرَرُ .[2]

***

واقسمُ المجد حقـاً لا يُحالفُهُمْ ،
حتى يُحالفَ بطـْنَ الراحة الشعرُ !

نقيضة جرير

ولقد تولى جرير الرد على الاخطل بنقيضة امتزجت كقصيدة الاخطل بين الفخر والهجاء . وفيما يلي نجتزيء بالابيات التي عرض فيها للفخر ، متجاوزين عن الهجـــاء لئلا نستطرد عن موضوع الدراسة :

نحنُ اجتبينا حياضَ المجدِ مُترَعةً ،
من حومةٍ لم يخالط صفوَها كدَرُ[3]

جاءَتْ سوابقُنـــا غُرّاً محجّلةً ،
اذ ليس في الناس تحجيل ولا غرَرُ .

---

١ ــ الرفد : النصيب ، القدح الضخم . الترافد المفاخرة بكبر الرفد . المغمور المكثور .

٢ ــ الادخنات : الزبل . الرفاد : القدح يحلب فيه . القرر ج . قرة : نفحة البرد .

٣ – اجتبي : اختار واصطفى ؛ او من جبي الماء في الحوض : جمعه . حومة البحر : معظمه

فأحمَدُ اللهَ حمداً ، لا شريكَ له ،
اذ لا يعادلنـــا مِن خلقه بشرُ !

إنـّا ، بطِخفَة ، او أيام ذي نجَب ،
نعم الفوارسُ ، لما ابتلـّت العُذَرُ [1] ؛

لم يُخزِ أول يَربوعٍ فوارُسهم ،
ولا يُقال لهم : كلا ، اذا افتخروا .

سائل تَميماً وبكراً عن فوارسنا ،
حين التقى بإيادِ القُلة الكدرُ ؛ [2]

لولا فوارس يربوعٍ بذي نجَبٍ ،
ضاقَ الطريقُ وأعيا الوِرد والصَّدرُ ؛

ان طاردوا الخيل ، لم يُشووا فوارسها ؛
او واقفوا،عانقوا الابطال،فاهتصروا. [3]

إنـّا ، وامـّك ، ما تُرجى ظُلامتُنا ،
عندا لحفاظِ ، وما في عظمنا خَوَرُ ؛ [4]

---

١ – طخفة : جبل طويل حذاءه آبار ومناهل ؛ ويوم طخفة لبني يربوع على قابوس بن المنذر بن ماء السماء • ذو نجب : وادي لمحارم ، وله يوم مشهور • العذر : جـ العذرة : الخصلة من الشعر ، الناصية

٢ – الاياد ؛ كل معقل او جبل حصين . القلة : اعلى الجبل • الكدر : الغبار اراد يوم ذي طلوح •

٣ – اشوى الهم : اخطأ الغرض • واقفه في الحرب والخصومة : وقف كل منهما تجاه الآخر • اهتصروا : كثروا •

٤ – الظلامة : ما احتملته من الظلم ، ما اخذ منك ظلماً ؛ اي لا خوف علينا ان نظلم • الحفاظ : المدافعة • الخور : الضعف •

تلقى تميماً ، ـ اذا هابت ُقرو ُمكم
خوضَ الامور، وكانت غمرَة ٌ، ـ جسروا [1]

ارجو لتغلبَ ، إذ غبت أُمورهمُ
أن لا ُيباركَ في الامر الذي ائتمروا، [2]

خابت بنو تغلبٍ ، اذ ضل فارطهم
حوض المكارم ، إن المجد ُمبتدر! [3]

هل تعرفون بذي بهدي فوارسنا ،
يومَ الهذيل بايدي القوم مقتسرُ ؟ [4]

الضاربين ، إذا ما الخيل ضرجها
وقع القنا ، والتقى من فوقها الغبرُ

كانت بنو تغلب ، لا يعلُ جدُّهم !
كالمهلكينَ بذي الاحقاف، إذ دمروا [5]

ُصبّت عليهم َعقيمٌ لم تزل بهم
حتى اصابهم بالحاصب القدرُ [6]

---

١ ـ غمرة الشيء : شدته ومزدحمه .
٢ – غبث امورهم : صارت الى اواخرها .
٣ ـ فارط القوم : الذي يتقدمهم الى الكلا . ابتدر القوم امراً : بدر بعضهم بعضاً اليه ، ايهم يسبق .
٤ – ذو بهدي : موضع كانت فيه وقعة . الهذيل : هو ابن هبيرة التغلبي . مقتسر : مقهور .
٥ ـ الاحقاف : رمال بظاهر اليمن كانت منازل قبيلة عاد البائدة . دمر ؛ هلك .
٦ – العقيم : الريح لا تنشيء سحاباً . الحاصب : الريح الشديدة تحمل الحصباء والتراب .

فهو يفتخر بانهم استقوا ماء المجد صافياً. فهم أعظم الناس ، لا يعادلهم احد من البشر ، ثم جعل يذكر انتصارهم في يوم طخفة على قابوس بن المنذر بن ماء السماء ، وتحدث عن يومي ذي الطلوح ، وذي نجب . فجنـــدهم لا يخطئون في رميهم ، واذا التحموا بالاعداء ، فانهم يهصرونهم هصراً ، كما انهم لا يظلمون ولا يخورون . وهذه المعـاني ، كما بدت ، جميعاً ، لا تعدو ذكر الايام والعنجهية ، مما هو شائع في تقليد الفخر الجاهلي .

الفخر بين جرير والفرزدق

كان السبب في تهاجي جرير والفرزدق ، ان شاعراً من بني يربوع يدعى غسان السليطي ، هجا جريراً ، فأخزاه ، فشكا آل يربوع الى البعيث المجاشعي قهر جرير صاحبَهم ، فجعل البعيث يقول : «وجدنا الشَرَفَ والشعر في بني نُوار ، بنت مجاشع » فبلغ ذلك جريراً فهجا البعيث وقومَه . ولم يزل القوم يثيرون البعيث على جرير حتى هجا بني كليب ، وتلاحم منذئذ البعيث وجرير في الهجاء . وما عتم جرير ان اقذع الهجاء لنساء مجاشع فاستعدى البعيث الفرزدق على جرير ، وكان الفرزدق في البصرة ، وقـد تَقيّد وأقسم ألا يتحرر من قيده حتى يحفظ القرآن . فاقبلت عليه نساء مجاشع وقُلْن له « قبح الله قيدَك ، وقد هَتَكَ جرير عورات نسائك ، فلـُحِيتَ شاعر قوم. » فثار وانطلق يقول من قصيدة:

فإن يَكُ قيدي كان نذراً تذرته
فما بي عن أحْساب قومي من شغل
أنا الضامنُ الراعي عليهم وإنما
يدافعُ عن أحسابهم أنا او مثلي

ومن ثمة لج الهجاء بينهما أربعين سنةً . ولئن شهر جرير بالهجاء ، فانه لم يكن بأقلّ باعاً في الفخر ، وقد يتجاوز من هذا الى ذاك ، دون إسفاف وتعذّر ، بل يتحقق لنا أنه في احيان كثيرة يجاري فيه الفرزدق وربما تجاوزه . اليكه يفتخر في إحدى قصائده بقوله :

ان الاعادي قد لقوا لي هضبةً
تُنبي معاولَهم ، اذا ما تُقرعُ ؛ [1]
ما كنت أقذِف من عشيرةٍ ظالمٍ ،
إلاّ تركتُ صفاتَهم تتصدَعُ . [2]
اعددتُ للشعراء كأساً مرّةً
عندي مُخالطها السِمام المُنقَعُ . [3]
هلا نهاهُمُ تسعةٌ قتّلتُهم ،
او اربعون حدوتُهم ، فاستجمعوا ؛ [4]

١ ـ هضبة : اي جبل ، اراد بها المعنى المجازي . تنبي معاولهم : اي تردها لصلابتها فلا تؤثر فيها .
٢ ـ الصفاة : الصخرة .
٣ ـ السمام : ج . السم . المنقع : المعالج ليقتل .
٤ ـ تسعة واربعون : هم الشعراء الذين يدعي جرير انه غلبهم . حدوتهم سقتهم . استجمعوا : استجابوا لحدائي .

فخصيتُ بعضَهم ، وبعضٌ جُدّعوا ،
فشكا الهوانَ الى الخصيِّ الأجدعُ !
كانوا كمشتركين ، لما بايعوا
خسروا، وشُفَّ عليهم، فاستُوضعوا. [1]
افينتهون ، وقد قضيت قضاءَهم؟
ام يصطلون حريق نار تسفعُ ؟ [2]
ذاق الفرزدقُ والأخيطلُ حرَّها ،
والبارقيُّ ، وذاق منها البلتعُ . [3]
ولقد قسمتُ لذي الرِقاع هديَّةً ،
وتركتُ فيه وَهيَّةً لا تُرقعُ ؛ [4]
ولقد صككتُ بني الفدَوكَس صكَّةً ،
فلقوا كما لقي القُرَيدُ الاصلعُ ؛ [5]
وَهَن الفرزدقُ يومَ جرَّبَ سيفَه ؛
قينٌ به حُمَمٌ ، وآمٍ اربعُ ؛ [6]

---

١ ــ شف عليهم : ربح عليهم . استوضعوا : ذلوا .
٢ ــ تسفع : تغير لون الوجه فتصيره الى الحمرة والسواد .
٣ ــ البارقي : سراقة البارقي المذكور سابقاً . البلتع : المستنير بن ابي بلتعة العنبري .
٤ ــ ذو الرقاع : عدي بن الرقاع . وهية : فعيلة من الوهي : الضعف ، ثلمة .
٥ ــ الفدوكس : لقب جد الاخطل . القريد الأصلع : اراد به الفرزدق، لانه كان اصلع .
٦ ــ يوم جرب سيفه : اي يوم اراد قتل الاسير بين يدي سليمان بن عبد الملك . آم : ج . أمة : عبدة .

أخزيتَ قومك في مقام قمتــــه ،
وو جدت سيف مجاشع لا يقطعُ !
لا يعجبنّــك ان ترى لمجاشع
جلـَدَ الرجال،ففي القلوبالخولعُ ! [1]

لقد حاول الشعراء أن يهدموا مجده فــلم يفلحوا ، أما هو فقد صدعهم بأقوالهم ، وأعد للشعراء كأساً مريرة ، مزجهـــا بالسم. أفلم ينتهوا ويمتثلوا بالتسعة والاربعين شاعراً الذينخزاهم، جادعاً بعضهم ، وخاصياً البعض الآخر . لقد صلى بنار هجائه الفرزدق والاخطل والمستنير بن أبي بلتعة العنبري ، بالاضافـة عن عدي بن الرقاع . ومن ثمة يتنكب الشاعر لذكر حادثة جرت للفرزدق ، اذ جبن عن قتل احد الاسرى فيحضرة سليمان بن عبد الملك،وعيّره بأن سيف بني مجاشعلايقطعلان الفزع يخلع قلوبهم ..

أما أهم مفاخره ، فقد ظهرت في بائيته التي عرفت فيما بعد بالدامغة ، وقد استهلها بهجاء الراعي وقومه بني نمير، ثم انصرف إلى الفخر ، هاجياً الفرزدق وقومه في أكثرَ من مائة بيت .

وفيما يلي نقتطع منها الابيات التي تظهر فخره وتعاليه :

أبى لي مـــا مضى لي في تميم ، وفيفرعَي خزيمة ، أن أُعابا! [2]
ستعلم من يصير ابوه قينــــاً ، ومن عُرفت قصائده اجتلابا!
أثعلبةَ الفوارس او رياحاً ، عدلتَ بهم طُهيّة والخشابا ! [3]

---

١ ــ الخولع : اي ان قلوبهم مخلوعة من الفزع .
٢ – فرعا خزيمة : كنانة وأسد .
٣ ــ ثعلبة الفوارس ورياح : من قوم جرير . طهية : امرأة مالك بن حنظلة الخشاب : اولاد مالك من غير طهية .

ونحن الحاكمون على عُكاظ ، كفينا ذا الَجريرةِ ، والمصابا ،
حمينا، ماء ذي نَجبٍ ، حمانا، وأحرزنا الصنائع والنهابا .
لنا تحتَ المحامل ، سابغاتٌ كنسج الريح تطّرد الَحبابا
وذي تاجٍ ، له خَرَزاتُ ملكٍ سلبناهُ السُرادق، والحجابا.
أعدّ الله للشعراء مني صواعقَ يخضعون لها الرقابا .
انا البازي المُدلُّ على نُميرٍ ? أُتحتُ من السماء لها انصبابا !
اذا علقت مخالبه بقرنٍ ، أصابَ القلبَ أو هتك الحجابا،
ألم ترَني صُببتُ على عُبيدٍ ، وقد فارت أباجله ، وشابا [1]
أُعدُّ له مواسمَ حاميات فيشفي حرُّ شعلتها الجرابا .
فغُضّ الطرف! إنك من نُميرٍ ! فلا كعباً بلغت ، ولا كلابا
اذا غضبت عليك بنو تميم ، حسِبتَ الناس كلهم غضابا ?
ألسنا أكثر الثقلين رَجلاً ، ببطن مِنى ، وأعظمهم قِبابا !
لنا البطحاء نفعمها السواقي ؛ ولم يك سيلُ اوديتي شعابا [2] .
لنا حوضُ النبيّ ، وساقياه ، ومن ورَث النبوة والكتابا
ومنا مَن يُجيز حجيجَ جمعٍ وان خاطبتَ ، عزّكُم خطابا [3]
ستعلم من أعزُّ حِمى بنجد ، وأعظمنا بغائرة هضابا !

١ ــ عبيد : اسم راعي الابل . فارت : تعقدت وورمت . الاباجل : ج . الابجل : عرق غليظ في الرجل او في اليد بازاء الأكحل .
٢ ــ الشعاب : ج . الشعبة والشعب : مسيل الماء في الرمل
٣ ــ من يجيز ... : اراد كرب بن صفوان وكان يجيز الناس من عرفات الى مزدلفة .

الفرزدق وفخره

هو همام بن غالب بن صعصعة ، من دارم . لقب بالفرزدق لغلاظة وجهه ، وجهومته . ولد في البصرة ونشأ في البـادية ، وكان له من سُؤْدد أهله ما اذكى في نفسه العنجهية . فابوه غالب كان كثير الجود ، وجدُّه صعصعة كان يشتري الموءُودات ، كما انه كان لبني قومه أيام غرر في الجاهلية وهو لا ينفك يذكر ذلك متفاخراً في الان ذاته بشعره ، وقدرته على مقـارعة الخصوم . ولقد اسلفنا أنه تواقع مع جرير بحرب هجائية دامت اربعين سنة مما جعل قصائده الفخرية تتعدد وتتكرر بمعان واحدة ، كذكر عظمة جدوده ، وشجاعة بني قومه ، بالإضافة الى كرمهم وقراهم للضيوف في أيام الجدب والمحل . ولقد رأيت ان اتولى عرض نموذجين من نقائض الفرزدق ، لنتمثل بهـما على واقع الفخر في الشعر الاموي عامة وشعره خاصة .

أما القصيدة الاولى ، فهي الفائية ، وقد استهلهـا بالغزل ، وتنكب الى مدح الخليفة عبد الملك ووصف الناقة ، حتى أوفى

الى الفخر وانتهى بالهجاء ؛ على عادته في كثير من نقائضه . اما الفخر في هذه القصيدة ، فقد خصّه ، في البدء ، بذكر قراهم للضيوف ، واصفاً الصقيع ، عندما تغبرُّ آفاق السماء ، ويشتدُّ عصف الريح ، ويصطلي الرعاة النـــار وتظهر الشعرى ويبدو الجليد كالزبد الذي يغشى أنياب النياق ثمّ يردف فيقول ان كرمهم يتجلى في تلك الايام العصيبة فهم يضمنون أرزاق الناس إذ تُمحل الارض ، ويقدمون اللحوم في القصاع الكبيرة الشبيهة بحوض الماء . وقد اعتكف عليها الضيوف كما كان الجـاهليون يعتكفون حول الصنم . فهنالك صفٌّ وراء صف ، والسمن يتقطّر من أيديهم .

بعد حديثه عن كرمهم وقراهم للضيف ، يعود فيتحدّث عن عن حلمهم ومحبّتهم للحقيقة ، بالاضافة عن إصلاحهم بين الناس . وينثني لوصف بطولتهم وصدّهم للمعتدين، بعد ان يشقوا عروقهم بالرماح والنبال ، ويتركوهم ، بين شريد وطريد ومحتضر .

بعد وصفه لبطولة قومه من خلال وصف المعارك يعود الشاعر للفخر بكرمهم وتقديم اللحم الطريء للضيوف ، بينما ينـــام الآخرون عن القرى مستطرداً من جديد للحماسة ، ذاكراً أنَّ بني قومه ، يوقدون الحرب ويخمدون جذوتها متى يطيب لهم . بعدئذ ، يذكر ان الخلفاء منهم ، يقعد الناس حولَهم ، منكسي الرؤوس ، حسيري العيون وهم ولاة بيت الله ، وبيت المقدس وهم إذا ساروا سار الناس وراءهم وعندما يقفون يقف الناس :

إذا اغــبرَ آفاقُ السماء ، وكشفت
كسور بيوت الحيّ حمراء حرْجفُ ، ١

وهتّكتِ الاطنابَ كلُّ عظيمـــةٍ
لها تامكٌ من صادقِ النّيّ أُعرَفُ ، ٢

وجاء قريــعُ الشَّولِ قبلَ إقالِها
يَزِفُّ ، وراحت خلفه ، وهي زُفّفُ ، ٣

وباشرَ راعيهـــا الصَّلَى بلَبانــه
وكفّيه ، حرَّ النار ما يتحرَّفُ ، ٤

وأوقدتِ الشّعرى ، مع الليل ، نارَها ،
وأمست مُحولاً جلدُها يَتوسّفُ ، ٥

وأصبح موضوعُ الصقيعِ كأنّـه ،
على سَروات النيب ، قُطنٌ مُندّفُ ، ٦

---

١ – الكسور : ج . الكسر : جانب البيت . الحرجف : الريح الشديدة الهبوب .
٢ – الاطناب . ج . الطنب : الحبل يشد به جانب البيت . عظيمة : نعت ناقة . التامك : السنام العظيم . الاعرف : طويل العرف وهي تفعل ذلك لشدة البرد .
٣ – القريع : الفحل . الشول ؟ الابل التي نقصت البانها . الافال : صغار الابل . يزف : يعدو . كل ذلك مق شدة البرد .
٤ – الصلى : اي صلى النار . ما يتحرف . ما ينحرف عن النار .
٥ – الشعرى : كوكب يطلع في الشتاء اول الليـــل . يتوسف ; يتقشر . – اي امسى جلد السماء لا سحاب فيه ، وان كان الضمير للارض يكون جلدها اصبح يتقشر من الجدب وقلة الانداء .
٦ – الموضوع ; ما تساقط . الصقيع : الجليد . السروات ، اراد بها اسنمة الابل . النيب ، ج . الناقة المسنة .

وقاتَلَ كلبُ الحيَ عن نارِ أهله

ليربِضَ فيها ، والصَّلى مُتَكشِّفُ [1]

وجدتَ الثرى فينا ، اذا يبس الثرى

ومن هو يرجو فضــــله المتضيّفُ . [2]

ترى جارَنا فينا يُجير ، وان جنى ،

فلا هو مما يُنطف الجارَ يُنطفُ ، [3]

ويمنع مولانا ، وانْ كان نائياً ،

بنا ، جارَه ، مما يخاف ويأنفُ . [4]

وقد علم الجــــيرانُ أنّ قدورَنا

ضوامنُ للارزاق ، والريحُ زفرفُ ، [5]

نعجّل للضيفان ، في المحَل ، بالقرى

قــدوراً بمعبوطٍ تُمــدّ وتُعرفُ ، [6]

تُفرَّغ في شيزى ، كأنّ جفانهــا

حياضُ جِبى ، منها مِلاءٌ ونُصَّفُ ، [7]

---

١ ــ متكشف : مجتمع عليه والابيات ٤٥ ــ ٥٢ في وصف شدة البرد والجدل ، توطئة للفخر بكرم قومه .

٢ ــ الثرى الاولى : الندى ، والثانية : الارض الندية .

٣ ــ ينطف : الجار يهلكه .

٤ ــ المولى : العبد المعتق

٥ ــ زفرف : شديد الهبوب باردة .

٦ ــ المعبوط : المذبوح .

٧ ــ الشيزى : من خشب الشيز ، وهو اسود صلب تصنع منه القصاع حياض جبي . اي حياض جمع فيها الماء فهي ملاءى ابداً ،

ترى حولهنَّ المعتفينَ كأنهم
على صنمٍ ، في الجاهلية ، عُكّفُ ،
قعوداً، وخلف القاعدين سطورهم
جُنوح ، وايديهم جُموسٌ و نُطفُ . ١
وما حُلَّ، من جهل ، حُبى حلمائنا
ولا قائل بالعرف فينا يُعنّفُ ؛
وما قام منا قائمٌ في نَدّينا
فينطق ، الا بالتي هي اعرفُ ٢
واني لمن قومٍ بهم تُتقى العدى ،
ورابُ الثأى ، والجانبُ المتخوفُ ٣
وأضيافِ ليل قد نقلنا قِراهمُ
اليهمْ ، فاتلفنا المنايا واتلفوا ، ٤
قريناهمُ المأثورة البيضَ ، قبلها
يُثجُّ العروقَ الأزأنيُّ المثّقفُ ٥

---

١ ـ سطورهم : صفوفهم . جموس من جس عليها السمن اي علق . ونطف : اي تقطر سمناً .
٢ ـ الندى : النادي ، المجتمع ، المجلس .
٣ ـ الرأب : الاصلاح الثأي الفساد بين القوم . الجانب المتخوف :
٤ ـ اضياف ليل : اراد بهم الاعداء ، وعبر عن القتل بالقرى . المنايا : صادفنا المنايا متلفة .
٥ ـ المأثورة : السيوف التي صقلت حتى ظهر اثرها . يثج : يسيل الازاني : الرمح ، نسبة الى ذي يزن .

منازيلُ عن ظهر القليـــل كثيرُنا
اذا ما دعا في المجلس المــتردّف [1]

قلفنا الحصى عنه ، الذي فوق ظهره ،
بأحلام جُهّال ٍ ، اذا ما تغضّفوا ، [2]

على سورةٍ حتى كأنّ عزيزَهـــا
ترامى به ، من بين نِيقَين، نفنفُ . [3]

وجهل ٍ بحلم ٍ قـــد دفعنا جنونه ،
وما كان ، لولا حِلمُنا ، يتزحلف ؛ [4]

رجحنـــا بهم حتى استثابوا حلومَهم
بنا بعـــد ما كاد الفنا يتقصّفُ ؛

ومدت بأيديهـــا النساء ، ولم يكن
لذي حسب ٍ عن قومه متخلّفُ ؛

كفينـــاهمُ ما نابهم بحلومنـــا
وأموالنا ، والقوم بالنبل دُلّفُ ؛ [5]

---

١ ــ منازيل : جء منزال : كثير النزول . المتردف : الذي يردفه من الشر شيء بعد شيء . قال ابو عبيدة في معنى البيت : « نحن وان كنا كثيراً لما لنا من عز ومتمة ، ننزل لذي القله عن حقه بحفظنا اياه . . »

٢ ــ قلفنا : الفينا . الحصى : الكثرة والعدد . بأحلام جهال : اي بعقول عقلاء يكون بهم جهل اذا جهل عليهم . تضفوا : مالوا عليه بالتعطف والنظر

٣ ــ السورة : الوثبة ، الهجمة . النيق : الجبل . النفنف : ما بين أعـــلى الجبل الى أسفله

٤ ــ يتزحلف : يتباعد ، يتنحى ، يتزحلق

٥ ــ دالف : جء دالف الرجل اذا مشى مشية فيها ابطاء وتمكن ورفق .

وقد أرشدوا الاوتارَ افواقَ نبلهم ،
وأنياب نوكاهم من الَحرْدِ تَصرِفُ.[1]

فما أَحدٌ في النـــاس يعدل دَارنا
بعزٍّ ، ولا عزٌ له حين َنجنَفُ ؛[2]

َتثاقلُ أركانٌ عليه ثقيــلةٌ
كأركان َسلمى ، أَو أعزُّ وأكثفُ .[3]

سيعلم من ســـامى تميماً ، اذا هوت
قوائمــه في البحر ، مَن يتخلّـَفُ !

فسعدٌ جبال العز ، والبحرُ مالكٌ ،
فلا حضنٌ يبلى، ولا البحر يُنزفُ.[4]

وبالله ، لولا ان تقولوا : تـكاثرت
علينا تميمٌ ، ظالمين ، وأَسرفوا ،
لما ُتركت كفٌ تشير بإصبعٍ ،
ولا ُتركت عينٌ على الارض تطرفُ.

---

١ ــ الافواق : ج . الفرق : موضع الوتر من السهم . النوكى : ج . الانواك : الاحمق . الحرد : الغيظ ، شدة الغضب . تصرف تحرق ، يسمع لها صوت .

٢ ــ درأنا : كذا في الاصل والدرء : الدفع ، الرد . ولعـل في اللفظة تصحيفاً ، فتكون « دارماً » ، قوم الفرزدق . نجنف : نميل ونجور .

٣ ــ الاركان : الجوانب . سلمى : احد جبلي طي .

٤ ــ حضن اسم جبل باعلى نجد .

لنـــا العزّة القعساء ، والعدد الذي ،
عليه ، اذا عُدّ الحصى ، يُتَخلّفُ . [1]
ولا عزّ . إلا عزُّنا قـــاهرٌ له ،
ويسألُنا النّصفَ الذليلُ فيُنصفُ !

ومنا الذي لاينطقُ النـاسُ عنده ،
ولكنْ هو المستأذَنُ المُتنَصّفُ ؛ [2]

تراهم قعوداً حـوله ، وعيـــونهم
مكسّرة ابصارُهم مـا تصرَفُ !

وبيتـــان : بيتُ الله نحن وُلاته ،
وبيتٌ بأعلى ايليـــاء مُشرّف . [3]

لنـــا ، حيث آفاق البرّية تلتقي ،
عديدُ الحصى، والقَسْوَريُّ المخندِفُ ؛ [4]

اذا هبط الناسُ المحصَّبَ من مِنى ،
عشيّةَ يوم النحر ، من حيث عرّفوا ، [5]

---

١ ـ القعساء : الممتنعة • يتحلف : من الحلف واليمين ؛ اي يحلف على ان ليس لاحد مثل عددنا وعزنا ، او يتحالف الناس علينا ويجتمعون •
٢ ـ المتنصف : المخدوم ، اراد به الخليفة .
٣ ـ بيت باعلى ايلياء : اراد به بيت المقدس •
٤ ـ عديد : وفي رواية : عميد • سيد • القسوري : الكبير ، الرئيس • المخندف : المنتمي الى خندف •
٥ ـ عرفوا : زاروا عرفات •

ترى الناس، ما سِرنا، يسيرون خلفنا ؛
وان نحن اومأنا الى الناس، وقّفوا ! [١]

الوفُ الوفٍ من دروعٍ ومن قنا ،
وخيلٌ كرَيعان الجراد وَحرشفُ ! [٢]

وان نكثوا يوماً ، ضربنا رقابَهم ،
على الدين حتى يُقبل المتألّفُ .

فانك ، اذ تسعى لتُدركَ دارماً ،
لأنت المُعنّى ، يا جريرُ المكلفُ ؛

أتطلُبُ مَن عندَ النجومِ وفوقَها
بربِق ، وعَيرٍ ظهره متقرّفُ ! [٣]

* * *

أبى لجريرٍ رَهْطُ سوءٍ أذِلةٌ
وعِرضٌ لئيمٌ للمخازي مُوَقّفُ !

اذا ما احتبت لي دارمٌ عند غاية ،
جريت اليها جريَ مَن يتغطرَف . [٤]

كِلانا له قومٌ هُمُ يُحلبونه
باحسابهم ، حتى يُرى مَن يُخلّفُ ، [٥]

١ ــ هذا البيت سرقة عن جميل بن معمر (الاغاني ٨ : ١٩٥) .
٢ ــ ريعان كل شيء ؟ اوله ، مقدمة : الحرشف : الرجالة .
٣ ــ الرق : حبل تشد به الجداء ، عير : حمار . متقرف : مقروح .
٤ ــ احتبت . . . : جلست تنتظر متى اوافيها . يتغطرف : يطلب السؤدد . من الغطريف : السيد .
٥ ــ يحلبونه : يعينونه وينصرفونه .

إلى أمــدٍ ، حتى يُزايلَ بيتنـــا
ويوجعَ منّا النخسُ من هو مُقرفُ[1]
عطفتُ عليك الحرب ، اني ، اذا دنا
اخوالحرب، كرّارٌ على القِرن مِعطف!
تبـــكي على سعدٍ ، وسعدٌ مقيمـة
بيـبرينَ منهم من يزيد ويُضعف[2]
على من وَراء الردمِ ، لو دُكّ عنهم ،
لماجوا كما ماج الجراد ، وطوّفوا ؛[3]
فهم يعدِلون الارض ، لولاهم استوت
على الناس ، او كادت تسير فتُنسف.[4]
ولو ان سعداً أقبلت من بلادهــا ،
لجاءت بيبرين الليـــالي تزحف![5]

اما النقيضة الثانية فهي الـلاميَّة التي استهلها بالتحدث عن دعائم بيته التي هي أعز وأطول من سائر البيوت . فالله قد رفع لهم هذا البيت الذي يدعمه ويتربع فيـه زوارة ومجاشع ونهشل

١ ـ المقرف : من الخيل الذي احد ابويه برذون .
٢ ـ سعد : هى قبيلة سعد بن زيد مناة بن تميم ، وهى اعز تميم .
يشير الى قول جرير :
ديار بني سعد ولا سعد بعدهم عفت ، غير انقاء بيبرين تعزف
فيقول ما انت وسعد ، وكـــثرة العدد تزيد على الناس ضعفاً .
٣ ـ الردم ، اراد به السد الذي بناه كسرى ، على قول العرب .
٤ ـ تنسف ، تقلع .
٥ ـ لجاءت بيبرين الليالي ، اراد لجاءت بيبرين بالليالي ، فقلب .

الذين بلغ علوهم الجبال . ومن ثم ينثني الى المقابلة بين قومه وقوم جرير فبينما ارتفع ببيت بني قومه على دعائم العز والشموخ ، نراه ينحدر ببيت قوم جرير فيجعله حجراً ، أو زريبة يغشاه القمل ويضرب فيه العنكبوت بنسيجه . فمن أين لجرير أن يتسامى على دارم وطهيَّة . فبنو قومه ما انفكوا يؤسرون ، ويعيشون في حلق الحديد ، كالجمال الجربة المطليَّة بالقطران . أما قوم الفرزدق فيحمون نساءهم بقوة ساعدهم وحسن بلواهم في الحروب . فهم اذ يحيطون بالملك الذي تخفق الرايات حوله وتحميه الجنود ، فانهم يُعِلّون رماحهم من دمه .

بعدئذ يتجاوز الشاعر الى ذكر بني فقيم ، وهم قوم من دارم الذين يصحبهم جيش لا عَدَدَ له . وكذلك يصف أمواج الجموع التي يؤلّبها بنو ربيعة ، فاذا هي كالجراد . وهو يفتخر كذلك بالعدويَّة وبالبراجمة ويعود بعدئذ ، الى الفخر المباشر ، ذاكراً سفيان أبا زرارة وجندل بن نهشل. فهم الأكثرون والأكرمون ، اذا سلكوا طريقاً سدوه دون الاعداء ، فلا يدرون أين يضعون قدمهم . وبنو قومه يلبسون حلل الملوك في السلم ، وفي الحروب يرتدون الدروع الطويلة السابغة ، وهم راجحو الاحلام ، رزينون كالجبال . لكنهم عندما يجهلون يصبحون كالجنّ ، لا يقوى أحد على زعزعتهم ، حتى يتزعزع جبل ثهلان ذو الهضبات . وهنا يعود الشاعر للتفاخر بالجدود ، ويذكر أحد جدوده حنظلة وبني ضبَّة أخواله ، ذينك الفرعين اللذين بلغا السماء . فهم يحمون من يلجأ اليهم . ومنهم زيد وابنه أبو قبيصة ، ومحلم بن

سويط الرئيس الأول ، ودعفل بن حنظلة النسابة الشهير . فالى من ينتسب جرير ، من هم أجـداده ومن هم أخواله ، لقد قتل بنو ضبة مزقيال تحت عجـاج المعركة ، وقد تداركوا إبلهم يوم الايل ،وصفـّدوا محرّقا وأخاه وقتلوهما وهما ملكان كللا بالتاج ، كما انهم قتلوا عمارة بن زياد العبسي وأجاروا شيبان وعامراً . وقاتلوا يوم الجمل الى جنب عائشة ،وهنا يهتف بتعظيم أصلهقائلاً :

يا ابنَ ا َلمرَا َغة ، أين خالـُكَ ؟ انني
خالي ، حبيشٌ ذو الفِعَال ، الأفضَلُ
خالي الذي َغصَبَ اُلمـلوكَ نفوسَهم
وإليه كان حباءُ جفنَةَ يُنْقَلُ

بعدئذ ، ينتقل الشاعر الى الاقـذاع في الهجاء ، فيذكر أن أباه كان يتنقل وراء البعير ، وانه ُشغِل عن المـكارم بلؤمه ، وينثني للتفاخر بشعره وبمن ورثه عنهم ، كالنابغة الذبياني والجعدي والشيباني ، والمخبَّل بن ربيعة ، وامرىء القيس ، والحطيئة ، بالإضافة إلى علقمة الفحل وطرفة بن العبد والمهلهل والمرقـّش ، فضلاً عن عبيد بن الأبرص ، وزهير وابنه كعب وحسّان بن ثابت . ولا ينفك يعدّد الشعراء ووصايتهم له حتى يقول :

إنّ استراقـَكَ ، يا جريرُ َقصَائدي
مثل ادّعاءِ سوى أبيكَ تـَنَقـُّلُ
وابنُ المَرَاغةِ يدّعي من دارِمٍ
والعَبد َغير أبيه قد يَتـَنَحـَّلُ

ولئن رغبت سوى أبيك ، لترجعن
عبداً إليه كأنَّ أنـْفكَ دُمَّلُ

فخر الفرزدق كما بدا في هاتين القصيدتين

يخيل لقارىء هاتين القصيدتين ، أنهما تكادان لا تختلفان عن قصائد الفخر الجاهلي. وهما تمتزجان بين فخر عمرو بن كلثوم ، في تعداد مآثر الأجداد ، وفخر النابغة في تعداد الأحلاف وتعظيم قدرتهم على البطش . الا ان التقليد يظهر بخاصة، في روح الأسلوب الذي لا ترابط ولا لحمة أو تطور فيه . فالشاعر ينتقل من فكرة الى أُخرى دون نمو أو صيرورة يتحدث بالواحدة ويدعها الى الثانية ، قبل ان يستنفد الحديث عنها. ولا يعتم ان يلتفت اليها من جديد بمعان وصور شبيهة بالمعاني التي سلفت قبل ذلك . لقد تحدث عن أجداده وعدد مآثرهم في ثلاثة مقاطع مختلفة من لاميته ، وكذلك الامر فهو قد ألم عبر الفائية بوصف كرم بني قومه وحبهم للقِرى من خلال وصف الصقيع والريح وقد كرر ذلك مرتين بمعان وصور متشابهة . وهكذا ، فان الفرزدق كعمرو بن كلثوم يتصدى لمعاني الفخر التي تعرض كيفما اتفق ، دون تثقيف وتنخل ، ودون تنبه الى التكرار والتقليد . ولعل التشابه بين عمرو والفرزدق لا يظهر فقط في طبيعة الاسلوب وحسب ، بل في المعاني والصور ، حتى يخيل الينا انه ينسخه نسخاً :

ومعصّب بالتـــاج يَخْفقُ فوقهُ
خِرقُ المـلوكِ له خميس جَحْفلُ
مَلِكٌ تسوق له الرماحَ أكفُّنـــا
منه نُعِلُّ صدورَهنّ ونُنْهِـلُ
قد ماتَ من أسلاتنـــا أو عضّه
عَضْبٌ بِرَونقِه الملُوكُ تُقَتَّلُ

وكان عمرو قد قال :

وَسيِّدِ مَعْشَرٍ قد توّجوهُ   بِتاجِ المُلْكِ يحمي المحجرينا
تركنا الخيلَ عاكفةً عليه   مقلدة أعِنَّتُهـــا صُفونَا

انت ترى أن الشاعرين يتحدثان عن الملوك ذوي التيجـان متوسلين بذلك لاظهار قوة بني قومهم وبطشهم . وقد بـــدا بوضوح أن الفرزدق يقتفي آثار عمرو بن كلثوم وسائر الجاهلين . أولم يكن عنترة يسرف بتعظيم خصمه ليتعاظم بقتله . ؟

ومهما يكن ، فان الفخر الأموي بقي في غالبـه فخراً كثير العنجهية ، تتردّد فيه معاني الفخر القديمة مع كثير من الغلو والتفكك ، وقلما نشعر ان وراءه تعقد انسان بمصيره ومضاعفات وجدانية ، تجعلنا نعانيه ونشارك به ، كما سوف نرى في الفخر العباسي .

وَاقِعُ الفخرِ في الشِّعْرِ العبَّاسي

كان الفخر ، في الشعر الجاهليّ بالإضافة إلى الشعر الأموي ، تعبيراً عن نفس كثيرة الصخب ، كثيرة العُجْب بذاتها ، تغتبطُ بالانفعالات العنيفة ، وتقصرُ همّها على المفاخرة بالأصل والكرم والشجاعة ، وما الى ذلك من قيم مقرّرة ، لم يكن عقلُ البدائي ليشكّ بها أو يثور عليها . لقد كان ذلك الفخر يدلّ على انسان يرضى بواقع الوجود ، كما تواقع الناس على فهمه ، مؤمناً بالقيم ، ومؤمناً بالدين ، يباهي اقرانه اذ يبزّهم ويتفوّق عليهم في اكتساب الفضائل وفي البطولة وفقاً لمفهومها الكلاسيكي . أما العباسي ، فقد غدا يعايش حضارة كثيرة التعقيد ، ويلتفت الى الوجود التفات متفحّصٍ محدّق مدقّق ، لا يقبل التقليد يقيناً ، ولا العادات حقائق ، بل يريد ان يتحرّى حقيقة الكون بنفسه ويكشفه كشفاً واعياً ، جديداً . وهكذا فان العقل العباسي تمرّد وثار ، ولم يعد يسيغ الايمان الغامض ولم يرض بالوجود كما تواضع عليه الناس . لهذا فان الفخر في هذا العصر ، يختلف ،

في بعض نواحيه ، غاية الاختلاف عن واقع الفخر القديم ، الذي تشتدّ فيه النزوة ، دون ان يعروه شكٌّ إزاء يقـين الأشياء . ولقد أوفى كثير من الشعراء العباسيين الى يقين وجوديّ سلبيٍّ، نقضوا به مفهوم الأشياء بالنسبة للقدماء ، ولبثوا يتعفّرون ويتمرّغون ، ملمين بكلٍّ ما يطيب لهم ، متفاخرين بالحـادِهم ومجونهم لاعتقادهم أَنه ليس ثمة يقـين في هذه الحياة ، وانه ليس ثمة ، قِيم وفضائل . ولئن كانت هذه النزعة قد خطرت في بعض الشعر الجاهلي كشعر طرفة ، فان كثيراً من الشعراء العبـاسيين أسرفوا فيها ، ونذروا حياتهم لها متباهين بها غاية التبـاهي ، داعين الناس لاعتناقها . ولقد بدا هذا المذهب في بعض قصائد بشّار ، لكنه لم ينجل ويتبلور الا في شعر أبي نواس الذي أوشك أن يقتصر على وصف الخمـر والتفاخر بالإدمان عليهـا وإعلان المجون وتحدي الناس والدين والسلطة . فهو يقول :

الا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمر
ولا تسقني سراً إذا أمكـن الجَـهْرُ
فعيش الفتى في سكرة بعـد سكرة
فان طـالَ هذا عنده قصر الدهر
فَـما الغبْنُ إلا أن تراني َ صاحيـاً
وما الغُنْمُ إلا أَن يُتعتعني السكْـرُ
فبُحْ باسم ِ من أهوى وَ دَعْني من الكِنى
فلا َخيرَ في اللـّذات من دونِها ستْرُ

ولا خَير في فتْكٍ بغـــير مُجانَةٍ
ولا في مُجُونٍ ليسَ يتْبَعُـه كفْرُ

انت ترى ان الشاعر يطلب من الساقي أن يعله الخمرة وأن يجهر بتسميتها له مظهراً بذلك فخره بها ، وايثاره لها ، كما انه يفتخر بالفتك والمجون والعربدة. وهذا النوع من الفخر نَقَض الفخر القديم ، فبينما كان ذلك الفخر يقوم بصورة خاصة على التغني بالفضائل ، أَصبح هـذا النوع الجديد يُسْرف في التغني بالرذائـــل ، مستخفاً غاية الاستخفاف بالقيم :

يا سُلـيمان غنـني ومن الخَمْر فاسْقني
عاطِني كأسَ سَلوَةٍ عن اذان المؤذنِ
عاطِني الخمْر جُهْرَةً وأَلطـــني وازنني

فالشاعر يفتخر بشربه الخمرة ، متجاوزاً عن آذان المؤذن أي متجاوزاً عن الدين وتعاليمه ، وهو يطلب من الساقي أيضاً ، ان يجاهره بشرب الخمر ليتحدّى بها ذوي الحَرَج والعَنَت ، كما انه يطلب ، منه ان يليطه ويزنيه . وهذا النوع من الشعر تظهر فيه نزعة الفخر بصورة غير مباشرة وتظهر فيه أيضاً ، أعماق المأساة الوجودية الإلحادية التي كان يخبط بها ويعانيها العصر . ومن ذلك ايضاً قوله :

وخمّارة نبّهتها بعـــدٍ هَجْعَــةٍ
وقد غَابَتْ الجَـوزاءُ وارتَفـعَ النصر
فقالـَتْ من الطرّاق ، قلنا : عصابَة
خِفافُ الاداوى يُبْتَغى لهمُ خَمْرُ

ولا بدّ أن يَزْنوا ، فقالتْ أو الفِدا
بأبلجَ كالدينارِ في طرفِهِ فتْرُ
فقُلنا لها هاتيه ما أن لمثلنا
فديناك بالأهلين عن مثل ذا صبْرُ
فجاءَتْ به كالبدر في ليل تمّه
تخال به سحراً وليس به سحْرُ
فقُمنا اليه واحداً بعد واحدٍ
فكان لنا من صَوم غربتِنا الفطْرُ

انت ترى ان الشاعر يفتخر افتخاراً صريحاً بغلمانيّته ، وشربه للخمرة ، كما بدا في القصيدة السابقة ، وكما يبدو ايضاً في سائر قصائده الخمرية التي لا قبل لنا بتعدادها ، كافة ، وانما نجتزيء بذكر بعضها استيفاء للبيّنات . فهو يقول خلال إحدى قصائده :

يا أحْمَدَ المُرتَجَى في كل نائبةٍ
قُم سيّدي نعص ربّ السماواتِ

ويقول ايضاً :

وندمانٍ يرى غبْناً عليه
بأن يمسي وليس له انتِشَاءُ
إذا ما أدركتْه الظهرُ صلى ولا ظهرَ عليه ولا عشاءُ
يصلّي هذه في وقت هذي فكلّ صلاته أبداً قضاءُ
وذاك محمد تفديه نفسي وحقّ له وقلّ له الفداءُ

لا شك ان محمداً الذي تحدث عنه الشاعر ليس سوى ابي

نواس نفسه الذي كان يطيب له أن يهزأ بالدين وسخف الذين يتعنّتون بأمره ، مُدمناً على الشراب ، حتى يحسب الديك حماراً ، أو حتى يرى كل شيء قدَحاً ، وكل انسان ساقياً . وهذا النوع من الفخر يمكن ان ندعوه الفخر الوجودي حيث يتفاخر الانسان بكفره بمعتقدات النـاس وشرائعهم ودينهم ، مظهراً باطل الوجود والمصير وتفاهة الدنيا وعبث القَدَر . ولقد ابتعد هذا النوع من الفخر الوجوديّ الماجن عن الفخر القديم [1] الذي يُنعم في الغلو بالانفعالات ، مقدساً التقاليد متباهياً بالفضائل.

ويمكن ان نضيف إلى هذا الفخر الجديد وجهاً آخر ظهر في بعض قصائد ابن الرومي ، اذ كان يسرف في اظهار فضـائله للممدوح حتى يقبل عليه ويجيزه .

ومهما يكن من امر ، فان رواد الفخر الحقيقيين في الشعر العباسي هم المتنبي وأبو فراس والشريف الرضي على تفاوت كبير في التعقيد ، بالرغم من التشابه وأحياناً الاتفاق بين النفسيات .

---

١ – فيما عدا فخر طرفة والأعشى .

الفخر في شعر أبي الطيّب المتنبي

٩١٥ - ٩٦٥

تمثل سيرة المتنبي في اضطرابها ، وتمزُّقها سورةً لمـا شاع في عصره من اختلال وقلق في المقاييس الاجتماعية والمثل ، وحيرة الانسان بنفسه ومصيره ، في بيئة عبثت بها الفوضى وانتُهكت فيها الحرمات ، واشتدَّت الازدواجيَّة في الشخصية البشرية ، حتى أصبح العيش فيها يتعذر ويستحيل على رجل ، لم تخمد في نفسه جذوة المثاليَّة ، ولم يرضَ من الوجود بان يستمرَّ ويحيا ، مُقتنصاً لقمتَه كيفما تيسَّرت له .

ولد المتنبي في كندة ، وهي إحدى محـــال الكوفة ، وقد كانت الكوفة ، عصرئذ ، ملتقى الدعوات الباطنيَّة ، بالإضافة الى الدعوات السياسية . وقد كان العلويون ، تحت وطأة الكبت والتنكيل السياسي يغذون في نفوسهم حلمـــاً بعودة المهدي المنتظر ، وربما اشبعت نفسيَّة أبي الطيب بهذه التعاليم وتسربت الى أعماق وجدانه وطبعته بشعور مبهم ، حادٍ ، سوف يظل

يتضاعف ويتقمّص ، حتى يظهر تأثيره في حياة المتنبي العتيدة .

وثمة ايضاً القلق السياسي الذي كان يسيطر على الخلافة العباسية،حيث كان كل قوي يقتطع لنفسه ولاية يستبدّ بحكمها ممّا يذكي في النفس أحلام السيطرة والطموح . ولقد شهد المتنبي هذه الأحوال وتأثّر بها غاية التأثّر ، لكنها لم تشغله عن التحصيل العلمي العميق المتشعّب الجذور ، حتى ألمّ بوجوه الثقافة التي كان يحفل بها عصره . وهكذا ، يتمثّل لنا المتنبي في مستهلّ شبابه ، فتى تزخر نفسه بالاحلام الباطنيّة الكثيرة الغموض ، والعودة الثانية والإمام المهدي الذي ينهض بالمسلمين ، جامعاً الى ذلك ثقافة متوغّلة ، نافذة .

الا اننا نعجز عن فهم نفسيته ، في تلك الحقبة اذا لم نتمثل ذلك الشعور بالتفوق الذي أُبرم في عصب الشاعر ، حتى التيه والعجب . وقد تضاعف ، وتطعّم وتعقّد بولادته الوضيعة ، إذ لم يكن أبوه ذا مصير خطير ، بل سقاء يكاد يعجز عن تحصيل لقمته ودفع العوز عنه وعن أهله . الا ان ذلك لم يكن ليخمد تلك الجذوة الداخليّة التي ما انفكت تتسعّر في نفسه ، هازئاً بكل ما تضاعف وتعقّد فيها ، وبكل ما يجعله مختلفاً عن ذوي المصائر العظيمة . ولقد عبّر عن ذلك ، تعبيراً صادقاً بقوله :

أيَّ عظيمٍ اتّقي　　ايَّ مكانٍ ارتَقي
وكلُّ ما قدْ خلَقَ اللهُ وما لم يَخْلُقِ
مُحْتَقَرٌ في همّتي كشعرة في مفرِقي

أنت ترى ان الشاعر يعبّر عمّا يشعر به من تعاظم على الناس الذين يحيطون به ، مهما سَموا وتعالت مراتبُهُم حتى ليشعر أَنهم شعرة تافهة في مفرقه . وابو الطيّب في ذلك لا يعلّل السبب الذي جعل هذا الشعور يتخطّفه ، وينزو به ، بل ينقله نقلاً صادقاً ، عفوياً ، لا مراءَ فيه ولا صنعة . ويقيني ان هذا الشعور هو طبع فيه ولد معه منذ ولادته ، لقد كان عصب المتنبي عصب إباء وترفُّع ، حتى إذا اراد أَلا يشعر بالتفوُّق فانه يكاد يعجز على ذلك ، كما يعجز الكئيب عن التحرُّر من الشعور بكآبته ، والمريض بمرضه ، والقوي بقوَّته . ولو لم يكن الشعور بالتفوق عصباً راغماً يستبد بنفسية المتنبي لما رأيناه يسيِّر حياتَه ، ويكيِّف مجراها ، حتى ليُصبح في النهاية كالصليب الذي يحمله الانسان على كتفيه ، او الذي يشرِّع ساعديه عليه في جُلجلة الكبرياء والطموح. وهكذا فانّ الشعور بالتفوُّق والطموح كان يشرق صافياً في نفسه بأضواء الامل ، والتفاؤل فيستخفُّ بالناس. وقد بدا هذا الشعور شعورَ رجل لم يخبر الحياة ولم يعاركها ، وما برح يواجهها من خلال غلالة الأحلام والأوهام ، فيخيّل له ان ما يتفكّر به سريع التحقيق وانه قادر ان يفعل ما يشاء دون عوائق وصعوبات . وما عتّمت ان تلوّنت نفسه بالبيئة التي عايشها . فالتعاليم الدينية رسمت ذلك الشعور الغامض الذي كان يخفق ويضطرب في أَعماق وجدانه ، واعطته شكلاً حسياً . ولشدة ما توغل أَبو الطيب في شعوره بالتفوُّق ، التبست عليه الأمور وتقمّصت عواطفه بعضاً ببعض ، فجعل يتوهم أَنه المهدي الذي ما برح الناس يترقبون عودته

ويفزعون إليه في خلاصهم . إلاّ أن المتنبي لم يتجرأ أن يعالن الناس في الكوفة أو في سواها من الحواضر، لأنه ما برح مجهولاً فيها . لذا رأيناه يتجه إلى الاعراب الذين كان قد أخذ عنهم اللغة ، باثاً دعوته فيهم بعد أن خلبهم بفصاحته . وقد كان ذلك أول انطلاق لشعوره بالتفوق من كونه وجيباً وحدساً غامضاً في نفسه ، إلى مواجهة الناس والواقع . لكن لؤلؤاً والي حمص من قبل الأخشيديين لقيه ، فبدد شمل اتباعه وسجنه حتى أوشك على التلف ولم يكن ذلك السجن قيداً لجسده ، بقدر ما كان قيداً لروحه ، حتى انتقلت الظلمة من بين جدران السجن الى ضمير الشاعر ، فأظلمت نفسه ، وتبددت تلك الأضواء الزاهية التي كانت تسطع وتتألق فيها ، في مستقبل فتوته ، عندما كان يشعر في زهوه وتماديه، ان الناس شعرة تافهة في مفرق طموحه . لقد كان ذلك السجن سجن الواقع ، والتقاليد والسلطة وما الى ذلك مما لم يكن الشاعر يحسب له حساباً . ولقد أذكى هذا السجن في نفس المتنبي الشعور بالتناقض والازدواجية والتمزّق . يشعر في اعماقه انه أعظم من القوم الذين يتسلطون عليه ،لكنه يعجز ، في الآن ذاته عتى اعلان هذا الشعور ، او بالاحرى عن تحقيقه ،وظلت احلامه تتدافع وراء جدران نفسه،تذكي في اعماقه حسّ الندموالبراح والهزيمة. وهذا الواقع عظيم الأهمية في الدلالة على حقيقة الفخر في شعر ابي الطيب. فالشعور الداخلي بالتفوق الذي حرّمته المحاذيرالخارجية كان يتنفس في شعره ، فاصبح يحقق في الكلام ما عجز عن

تحقيقه بالافعال . لهذا رأينا ان سحـابة من الاصفرار والقنوط تغشى شعره في تلك الحقبة ، ويتولاه شعور بالهزال والتشاؤم ، اضفى على صوره ومعانيه غلالة وجدانية عميقة البث والايحاء . فهو نبيٌّ ، لكنه نبي مخذول ، يعيش في قوم لا يقدرونـــه حق قدره :

ما مقامي بأرض نخلة إلاّ كمقام المسيح بين اليهود
أنا في أُمّــة تداركهــا الله غريب كصالح في ثمــود

أنت ترى ان خيوط الظلمة تسرّبت الى نفس المتنبي ، فأين هذا الفخر الموحش القانط من ذلك الفخر الذي أشرنا إليـه في الابيات السابقة ،حيث كان الشاعر يطلُّ من باب الرؤيا والتجلي؟ الا ان الشاعر بالرغم من شعوره بالفشل ، وبالرغم من تفوّف أمانيه ووحشة نفسه ، ما برح يشعر في اعماق وجدانه انه نبي ، أنـه مسيح بين يهود الأطماع والمال والسلطة وانه صالح بين ثمـــود الواقع الذي نحر احلامه كما نحر الثموديون ناقـة نبيهم . لا شك ان الشاعر لم يعبر عن هذا الامر بوعي ووضوح ، كما نعبر عنـه نحن الآن فهو يعاني تحولات ومضاعفات كثيرة طي ضميره ووجدانه يعانيها معاناة ، ولا يحللها تحليلاً . فالمتنبي الذي يتــوّهم نفسه مسيحاً وصالحاً ، هو ذاته المتنبي الذي يشعر ان النـاس شعرة تافهة في مفرقه ، والفرق بين حالته الاولى والحالة الثانية ، هو فارق زمني أَو بالاحرى إنه فارق اختبار الحيـــاة ومواجهة الواقع ، والتعقـّد بصعوباته ومستحيله . وهكذا ، بات المتنبي وبتنا نشعر معه بشيء من الكسوف في لألاء ذلك السراب الذي

كان يقلق ويتفجّر في واحة نفسه .

المتنبي وسيف الدولة ، أو التفاخر السلبي

لم تكن مرارة السجن اكثر تأثيراً في المتنبي من مرارة الفقر . فهو ما انفك يتنازع بقاءه صفر اليدين ، متجولا بين بلدة واخرى ، متجالداً ، على قدميه ، شاعراً ان القدر يضطهده وان الناس يمالئون القدر في اضطهاده . وقد كانت اللقمة تشد به دائماً من عالم الطموح والمثل الى عالم الكسب والمعيشة ، حين تروج تجارة الكذب والنفاق فلم ير بداً من الاذعان للواقع فشرع يبيع شعره في «سوق الكساد» ، لقاء دريهمات قليلة يكسبها بشق النفس وتعفير الجبين . ويقيني ان هذا التوتر الداخلي ، هو الذي كان يفيض في نفس الشاعر بتلك الصور الشاحبة ، المكدودة ، ويذكي في وجدانه التجربة الشعرية، لان الشعر الصافي الخالد لا يتولد إلا من احتكاك النفس ومدها وجزرها بين راحة اليقين والشعور بالضياع والاختلال عندما تقف أمام الواقع منعمة بالتحديق فيه .

ولقد شرع ابو الطيب ينحدر ويتخلى عن ذروة الرفعة والطموح متكيفاً بالنسبة للواقع الذي يعايشه . لذلك فهو لم ير بداً من الاكتفاء من الطموح بأن يصبح شاعراً يصف اعمال البطولة التي كان يحلم بها ، وهي تتحقق في سواه . وهكذا دخل الى بلاط سيف الدولة وهو في نحو الثلاثين من عمره ، وقد أفاد كثيراً من التجارب النفسية ، والفنية ، فكسف سائر

الشعراء الذين كان يحفل بهم بلاط الامير ، ومـــا عتم ان أثرى واشتهر في الناس حتى غدا يشغلهم ويفتنهم . وبذلك يكون قد حقق جانباً من جوانب بطولته وعظمته الفنية الشعرية ، دون ان تخمد في نفسه الجذوة الباطنية التي ما برحت تذكي في ضميره ذلك الحس المريض بالتفوق والامتياز . ولعلنا اذا ما اوغلنا في استبطان نفسية ابي الطيب في هـــذه الحقبة لتحقق لنا ان الشاعر كان يعيش في حالة من التعوض النفسي، يعيش في اجواء ملحمة العلى والبطولة، لكنه لا يتمرس بها، ولا يشاركفيها،بل يشاهدها ، ويواكبها بوجدانه، لذلك ظل يشعر بفراغ في أعماقه ؛ لكنه ليس ذلك الفراغ الذي لا يطاق ، كما انه ليس اليـــأس المطبق ، بل هو اشبه شيء بالتململ والترقب . لهـــذا ، يمكن ان نشهد شيئاً مـــن التقمص والتحول بين الشاعر وامـــيره فكأنه كان يصور في مدح سيف الدولة الاحـــلام التي كانت تراودُه . فالينبوع الذي كان الشاعر يختزنه في نفسه ، تفجّر في مدائحه لسيف الدولة ، اذ اشترك عصب الشاعر وما فيـه من احساس عميق بالبطولة بامداده بتلك الصور الملحميَّة الخـارقة التي صور بها سيف الدولة . وهكذا ، يمكن ان نقول ان سيف الدولة كان الذات الثانية لابي الطيّب . لقد كانت نفسية الشاعر القوّة ونفسية سيف الدولة هي الفعل الذي تمثّلت به تلك القوّة .. اقد كان المتنبي يزدوج ويتضاعف بسيف الدولة . فهو اذ يقول :

تظلُّ ملوكُ الأرض خاشعةً له تفارقُـه هلكى،وتلقاه سجَّدا

ذكي تَظنّيه طليعةُ عينِه ، يرى قلبه في يومِه ما ترى غدا
وَصُول الى المستصعبــات بخيله
فلو كان قرنُ الشمس ماءً ، لا وَرَدا

أولا نستشف خلال قوله هذا، كثيراً من الفضائل التي كان المتنبي يدّعيها لنفسه . أولم يصوّر نفسه، دون أن يدري من خلال هذه الأبيات . ؟ لا شك ان بعض النقاد يرون في هذا التحليل كثيراً من التمحّل والتقصّد ، الا ان الذين خبروا علوم النفس يدركون كيف تتقمص احوال النفس، وتتسرب بصورة خفية قاتمة كالحلم، او كالرؤيا الغيبية. والشعر في تحديده الاصيل، ليس إلا تعبيراً عن تلك الاضواء المثالية التي تخطف في النفس عندما تتنازع مــع الواقع ، وتصاب بالكبت ، او يطبق عليها المستحيل . وبعد فما هي الغرابة في ان ينقل ابو الطيب أحلام العلى والطموح من نفسه الى ممدوحه ؟ أولا يقوم المدح أصلاً على تطعيم بــين نفس الشاعر والممدوح، ان يعبر هذا عن ذاك ؛ وهكذا، فان المتنبي يكاد لا يلم بمدح سيف الدولة حتى تتضوأ ظلمة وجدانه وتتوحد نفسه مع الموضوع وتتكيف بالنسبة له ، حتى لا نعود ندرك اين تقف الحدود بين شخصية الشاعر وشخصية الممدوح. او لم يكن المتنبّي يحلم بأن يكون ملك الملوك ، يلقونه خاشعين ساجدين . ومن هو ملك الملوك ، أليس هو النبي الذي تفوق قدرته سائر البشر . وهكذا ، فان الصورة التي شخصت في البيت الاول كانت رؤيا داخلية في نفس المتنبي ، طالما تمثلها ، عندما كان يغمض عينيه ويحقق في الوهم ما ما كان يود ان يحققه في الواقع . وكذلك الامر في قوله :

ذكيٌّ تظنيه طليعة عينــــه   يرى قلبه في يومه ما ترى غدا

او ليس الرجل الذي يدرك الامور قبل ان تقــع والذي يعرف اليوم ، ما سوف يأتي به الغد ، أليس هذا الرجـل هو نبيٌّ ؟ ونحن اذ نتقصّى لا ننفك نستشف مثل هذا التقمص البعيد بين الشاعر وممدوحه ، حتى اننا نكاد لا نشهد صورة مثّل بها المتنبي سيف الدولة ، الا وفيها سورة من سور النبؤوة. اليكه يقول:

وقفتَ وما في الموتِ شـكٌّ لواقفٍ
كأنكَ في جفـنِ الردى وهْوَ نائمُ
تمرُّ بكَ الأبطالُ كلْمى هزيمـــةً
وَوَجْهُكَ وضّـــاح وثغرُكَ باسِمُ
تجاوزت مقدارَ الشجاعـة والنُهى
الى قولٍ قومٍ انت بالغيبِ عـــالِمُ

انت ترى ان الشاعر جعل سيف الدولة يقف في جفن الردى وجعله يعلم بالغيب ، وهذه الأعمال وتلك الصفات لا تصدق الا في الانبياء ، وذوي المصائر الفائقة . لا شك ان وراء هـــذه الاقوال رغبة في الغلوّ ، والتمجيد والتعظيم ، إلا ان نفس المتنبي هي التي صورت البطولة والعظمة بهـــذا الشكل . ولو تصدى امروء غير المتنبي لرسم البطولة لما رسمها بهذا الاسلوب ولما قدر له ان يجعل الممدوح نبياً . وهكذا ، فان الموضوع هو من سيف الدولة ولكن الصورة هي من نفس المتنبي ، وقـــد فاضت من أعماق وجدانه وما ترسّب في قاعه من سور بعيدة رسمها الشاعر عبر أحلام البطولة والتقوى التي كانت تراوده . وهذه الأبيات

التي مدح بها سيف الدولة هي من أدل الأبيات على واقع الفخر في شعر المتنبي ، بالرغم من أنها ليست من الفخر المباشر الواضح. واذا ما اكتفى الناقد بالظواهر البيّنة ، الواضحة الحدود ، فانه لا يقع إلا على الإطار الخارجي الذي تستتر به حقيقة الاشياء .

إلا ان الشاعر وهو في ذروة علوّه ومجده الشعري ، في بلاط سيف الدولة ما برح يواجه الواقع ، ويتنكد به . وبقدر ما يتعالى ويسمو ، بقدر ذلك يشعر أنه يتشبّث به ويشدّه الى أسفل . ذلك ان الحسّاد تكاثروا عليه ، وحاولوا ان يوقعوا بينه وبين سيف الدولة ، وظلّوا يكيدون له ، ويعبثون به ، حتى تواقع مع سيف الدولة ، وتركه الى الشام ثم الى كافور الاخشيدي والي مصر الذي استقدمه بعد أن وعده بأن يُقطعه ولاية .

ولعلنا لن نوفق في التوغل بدراسة نفسية الشاعر في تلك الحقبة ، اذا لم نقدّر الخيبة التي فجع بها إثر خروجه من بلاط سيف الدولة . لا شك انه كان قد أثرى « وأنعَلَ خيلَه » من عطائه عَسْجدا ، لكن ذلك الغنى المادي لبث ينطوي على كثير من التصوُّر الروحي ، والأحلام التي رفع قبابَها في نفسه المُراهقة، ما برحت تلاحقه، وتطارده. ولشدّة ما كان قد ألحّ بها في نفسه ، أصبح يشعر عندما تعذّر عليه تحقيقها ، بالفجيعة التي يشعر بها الملك الذي يفقد عرشه ، او النبي الذي يفقد رعيّته . وكان المتنبي ، بعد هجر سيف الدولة ، قد شارف على الكهولة ، واوشكت ان تخمد فيه جذوة الغرور وتألّق الاماني

التي تشرق في صبح العمر ، فأدرك انه سوف يبقى أحد المردّدين والمغنين للأبطال في جوقة العلى ، ولن يكون بطلاً يتحدث به الناس ويتغنّون ببطولته . وربما سئمت نفسه التملق والنفاق ، لكنه لم يَتُب ووييأس ولم تعفّ الايام على احلامه ، بل راودوها مرة اخيرة في بلاط كافور الاخشيدي ، منحدراً غاية الانحدار ، متبذّلاً غاية التبذل . ولئن كان في مدحه لسيف الدولة مبرّر أمام نفسه ببطولة سيف الدولة ، فلم يكن له اي شافع أمامهـــا في مدحه لكافور ، وهو عبد زنجي ، مثقوب المشفرين ، مشقّق القدمين هائل البشاعة ، أُمي ، اغتصب الملك من ابن سيّده . والواقع ان كافوراً كان يمثّل نقيض الفضائل التي كان يدّعيها المتنبي . وكما كان سيف الدولة شقيق المتنبي في روحه ، كما كان ذاته الثانية التي تحققت في الواقع ، كان كافور ، يمثل نقيضاً لذاته ، او مسخا لها . الا ان المتنبي لم يتورّع عن السجود له ، وتقبيل الارض بين يديه ليقطعه إمارة حقيرة يشبع بها نهَم نفسه الى السلطة . الا ان كافوراً كان يعدُه ثم يخلف الوعد ، وما عتّم ان تفاقم الخلاف بين الشاعر والعبد ، فمنعه كافور من الرحيل دون ان ينعم عليه أو يكرمه ، أو يقطعه ولاية . وفي هـــذه الاثناء ألمت به حمى البرداء ، فانقطع الى مخدعه حزيناً ، وحيداً ، لا يعوده أحد ، ولا يبالي به كافور ، فشعر أن حياته فشلت فشلاً ذريعاً ، وأنه ابتدأ في ذروة العلوّ والانفة ، واذا به يجد نفسه كهـلاً ، وهو ملقى على فراش الذل عند قدمي عبد ذليل يستبد به ، ويقبض عليه أنفاسه . وكان الشاعر يأمل ان يقبل العيـــد فيحقق له

كافور ، ما سبق أن وعده به ، الا ان العيد مرّ دونه أيضاً ، موحشاً ، قاتماً لا ضوء فيه ولا أمل ، فتسعَّرت نفسه بحقدها على الذين وتروها منذ إن كان في بلاط سيف الدولة ، وحقدها على كافور ، وعلى الذين ما برحوا يتعالون عليه ، دون ان يكون لهم فضيلة سوى رفعة الأصل ، وحقد نفسه على ذاتها ، بعد ان سجدت لذلك العبد الخصي ، فانفجر الشاعر بتلك القصيدة التي هجا بها كافوراً في الظاهر ، والدهر والناس ، والعصر ، في الواقع ، متسائلا بقوله :

ماذا لقيت من الدنيا ؟ وأعجبه　　اني بما انا شاك منه محمودُ

إن عصب المتنبي ما برح ينبض في هذه القصيدة ، ولكن رأسه المتشامخ العاتي ، يبدو منحنياً ، ذليلاً وأساريرُه التي كانت تتألق بالكبرياء والعنجهيَّة في البدء أصبحت تبدو الآن كثيرة الإنقباض والتجهُّم كانما ترتسم على وجهه مأساةُ العصر الذي يعايشه بكاملها .

واذا ما أنعمنا بهذه القصيدة الهجائية ، نراها تنطوي على كثير من معاني الفخر خاصة في قوله :

ما كنت أحسبني أحيا إلى زمنٍ
يسيءُ بي فيه عبدٌ وهوَ محمودُ

هذا البيت يوجز مشكلة المتنبي . فهو يحقد على كافور ، بخاصَّةلأنه عبد يستذلـُّه . ومن خلال هذه الفلذة يمثّل لنا الشاعر اختلال القيم والمقاييس في ذلك العصر.فالإنسان لا يرتفع ويسمو بعلمه وكفاءته ، بل بقدرته علىالاحتيال والاغتصاب . ومن هنا

كان استبداد كافور بالمتنبي ، عنواناً لذلك العصر الذي تناقضت فيه المفاهيم ، فبدلاً مِن أن يحكم الحرُّ العبد ، نرى العبد يتحكّم بالحرّ . وبدلاً من ان يتحكم العالم بالأمّيّ الجاهل ، نرى الأميّ الجاهل يتحكم بالعالم . وبدلاً من أن يسيطر الرجل الكفوء على الخصيّ العضريط ، نرى الخصيّ العضريط ، يستبدُّ بالحرّ .

وبالاختصار ، فإن القوة هي التي كانت تسيطر في ذلك العصر على الحقّ والجدارة . وبهذا ، تتعدّى نقمة المتنبي كافوراً ، إلى واقع البيئة التي يعايشها . وبعد ان كان فخر المتنبي ، في البدء ، فخر رجل فرح مغتبط ، أصبح فخره في هذه المرحلة ، فخر رجل حقود تتميّز في نفسه الثارات والضغائن . وغدا فخره مشوباً بالهجاء ، أبداً ، أو بالأحرى لقد انعكس فخره الى هجاء يلعن به القوم الذين يعايشهم اذ يقبلون بالذل . ولسوف نتحقق من ذلك في هجائه لأهل مصر إثر رحيله عنهم .

واقع الفخر في شعر المتنبّي

اسلفنا في الصفحات السابقة ان عصب المتنبي كان عصب طموح وعتو راغم . وتكاد نفسه لا تنبض ببيت من الشعر حتى ينبض ذلك العصب ، أكان بصورة واضحة جلية ، أم بصورة قاتمة ، غائمة . ويمكننا بذلك ان نقول ان قصائد أبي الطيب ، أكانت مدحاً ، ام رثاء ام غزلاً ، ليست سوى وجوه مختلفة لنوع أدبي واحد يغلب في شعره كافة ، وهو الفخر . فالشاعر يفخر خلال مدحه ، ويفتخر أيضاً ، خلال رثائه ، ويفتخر

خلال غزله وهجائه ، ونكاد لا نعثر على قصيدة في مدح سيف الدولة الا وتعقّبها ابو الطيب بأبيات من الشعر يعتو ويتشامخ فيها بتفوقه وعظمته . فهو يقول :

وما أنا الاّ سمهري حملتَه
فزيّنَ معروضاً وراع مسدّدا
وما الدهرُ إلا من رواةِ قصائدي
اذا قلت شعراً اصبح الدهرُ منشِدا
فسار به مَنْ لا يسيرُ مشمِّرا
وغنّى به من لا يغني مغرِّدا
أَجزني إذا أُنشِدْتَ شعراً فإنّما
بشعري أتاكَ المادحون ، مردّدا
وَدَع كلَّ صوت غير صوتي فانني
انا الطائر المحكيُّ ، والآخرُ الصدَى

أنت ترى ان هذه الأبيات هي أبيات من الفخر المباشر بالاضافة الى ما اشتملت عليه القصيدة من فخر غير مباشر. وأبو الطيب ، خلال هذه الأبيات، لم يتخل عن ادعائه التفوق والقيام بالمعجزات . فشعره ، كما يدعي يسير بمن لا يسير ، اي انه يشفي الكسيح . لا شك ان الشاعر لا يعني ما يقول . الا ان هذا القول بالرغم من ذلك ، يوحي بواقع نفسية الشاعر التي ما برحت تشعر في أعماق ذاتها ، ان فيها شعلة ليست في سائر النفوس وانها قادرة على ما تعجز عنه ، ويستحيل على النفوس الاخرى. ولقد بدا ذلك في قصيدة ثانية عاتب بها سيف الدولة ، عندما اشتدت

الخصومة بينه وبين حساده . لقد قال :

سيعلَمُ الجمعُ مِمَّن ضمّ مجلِسُنــــا
بأنني خيرُ من تَسْعى به قـدَمُ

أنا الـّذي نظَـرَ الأعمـى إلى أدبي
وأسْمَعتْ كلمـــاتي به من صَممُ

فالشاعر يرى أنه خير من تسعى به قدم وأنه قادر أن يجعل الأعمى يبصر والاصمّ يسمع. ولا قِبَلَ بهذه الاعمال الا للأنبياء. فهو يتشبّه بالمسيح مرة ثانية . وهكذا فان الشاعر مهما اتّقى وتستّر بقدرته وتفوقه، فان هـــذا الاعتقاد يتسرب من نفسه تسرباً ، ويعلن عن ذاته بصورة غير مباشرة . فالمتنبي ، فيما كان ينعم ببلاط سيف الدولة، لم يكن قد تخلى عن ايمانه بتفوقه وربما نبوءته ، بل اضطر ان يستتر بذلك ، تخوفاً ، وتكيفاً بالنسب للواقع . ومهما يكن من أمر ، فأن مـدح الشاعر هو وجه آخر لفخره ، يقترب منه ، ويتقمص فيه، وإحياناً ينبري منه بصورة سافرة كما رأينا في الابيات السابقة .

الفخر في الرثاء

لعلنا اذ ننعم بفخر المتنبي خلال المدح ، نستشفُّ ان المدح ليس إلاّ تغنينا بالبطولة والفضائل. انه تفاخر بالآخرين. اما الفخر في الرثاء ، فيضعنا أمامنا ظاهرة غريبـة ، لان الرثاء ليس ، في الواقع ، سوى تفجع وانهيـــار ، وهو لا يسيغ الفخر والعتوّ مطلقاً . الا ان عصب المتنبي لم يستسلم في رثائه، فهو لايرى حرجاً

في أن يقف على أشلاء الآخرين ، متعالياً متشامخاً كأنه يشاهد المأساة مشاهدة من الخارج ، وليس يعانيها معاناة من الداخل . يقول خلال رثائة لوالدة سيف الدولة :

رماني الدهرُ بالارزاء حتَّى   فؤادي في غشاء من نَبالِ
فصرْتُ إذا ، أصابتني سِهَام   تكسرت النصالُ على النصال
وهان ، فمـا أبالي بالرزايا   لاني مـا انتفعت بأن أبالي

فالشاعر هنا ، يتحدث عن النصال التي تتكسر بعضاً على البعض الآخر ، كأنه يتحدث عن معركةأو يصف وصفاً ملحمياً. وبالرغم من انه يرثو والدة سيف الدولة ، فقد خص كبرياءه بثلاثة أبيات تشامخ فيها على الموت والدهر ، ونافس المصائب ، محاولاً أن ينتصر عليها ، غير شاعر بها ، أو مذعن لها . فهو يريد أن تمرَّ به المصائب دون ان ينحني ، كأنه يودُّ أن يبقى على حالة واحدة في جميع احواله . ولقد تقمص هذه التجربة ونسبها في القصيدة ذاتها الى سيف الدولة اذ قال :

وحالاتُ الزمانِ عليكَ شتى   وحالكَ واحدٌ في كلِّ حالِ

فالشاعر قد حقق في المتنبي ما كان يتمنى ان يحققه في نفسه. وهذا يؤكد ما ذهبنا اليه اذ قلنا ان سيف الدولة كان الذات الثانية للمتنبي ، يحقّق فيها ما يتمناه ، وما يريد ان يحققه في نفسه . ولقد منح الشاعر سيف الدولة هذه العصمة عن الشعور بالرزايا والمصائب في قصيدة أُخرى رثا بها ابنه أَبا الهيجاء ، إذ قال :

ولم أرَ أعصى منك للحُزنِ عبرةً

وأثبتَ عقلاً والقلوبُ بلا عقلِ

تخونُ المنـــايا عهده في سليلِهِ

وتنصُرهُ بينَ الفوارسِ والرجلِ

ويبقى على مُرِّ الحوادث صبرُهُ

ويبدو كما يبدو الفرَنْدُ على الصقلِ

ولعلَّ عنجهيته، أشدّ ما يظهر في رثائه لجدّته، وقـــد شَخَصَ امام جدتِها كأنه بطل في ساح القتال وليس حفيـداً يتفجع ويبكي موت جدّته. ففي مطلع القصيدة نراه يرسم لنفسه صورة شبيهة بالصورة التي رسمها لهـا، عندما رَثا والدة سيف الدولة فيما بعد. لقد قال:

أَلا لا أُري الأحداث مدْحاً ولا ذَمّا

فلا بطشُها جهلاً، ولا كفُّها حلْما

إلى مثْل مـــا كان الفتى مرجع الفتى

يعودُ كما أُبدي، ويُكري كما أرمى

فالشاعر هنا يترفع عن الأحداث التى تلمُّ به ولا يتأثر بها، او بالأحرى يريد أن يبقى على حالة واحدة في جميع الأحوال. وهذا النوع من الفخر، يبدو أكثر إنسانيّة لان الشاعر يعاني فيه عاطفة انسانية طبيعية، في محاولته للانتصار على الألم وعـــدم الانهيار أمامه. وهذا الفخر وليد التأمل بالحيـاة، والمصائب التي تخني بها على الانسان، الا انه يتّصف بما عرف في نفسية المتنبي من تكابر حتى على المصائب. فابن الرومي، عندما فُجعَ بموت

ولده ، تفجع وتهالك وجعل يعول وينوح ، كالمهلهل والخنساء . اما المتنبي فقد شمخ وعتا وأنكر جرحه ، بالرغم من أن الدم ما برح يسيل منه . ولانعتم أن نراه يربدّ في عتوّه مفتخراً بنفسه ، حتى على جدته المسكينة التي ماتت فرحة بكتاب أنفذه اليها :

وَلَو لم تَكُوني بنتَ أكرم والدٍ
لكانَ أباكِ الضخمَ كونُكِ لي أُمَّا

لئن لذَّ يوم الشامتينَ بيومِها
فقد ولدت منّي لأنفِهِم رغمَا

تغرَّب لا مستعظماً غير نفسه
ولا قابلاً الا لخالقهِ حكْمَا

انت ترى ان الشاعر يَجِدُ نفسه في بحبوحة من المجد والعظمة حتى ارتدّت منه الى جدّته . وهو لا يستعظم غيرَ نفسِه ، ولا يخضع الا للخالق . ولا بدع ، فالشاعر ، عندما رثا جدّته لم يكن قد هجر سيف الدولة مخذولاً ، ولم يكن قد سَجَد لعبد خصيٍّ ككافور ، لذلك نراه في أوج عتوه ، يزهو بحالة شبيهة بالحالة التي كان يزهو بها في مستهل شبابه ، عندما شعر ان الناس ليسوا سوى شعرة تافهة في مفرقه ، بالرغم من أنه خلال هذه الابيات ، شرع يشعر بوطأة الحسّاد والشامتين . والفخر كما بدا في الابيات السابقة ليس فخراً تقليدياً بقوة السيف واقتحام الوغى ، بل انه فخر نفسي بقوة الارادة والطموح ، وعدم الإذعان للمصائب . وهذا الفخر هو أصفى مفاخر المتنبي إذ يعبّر به عن سورة النقمة التي تحرُّه تحت وطأة الحوادث الخارجية التي

تقبل عليه .

ولقد استطرد الشاعر في الجزء الثاني من القصيدة عن الرثاء ومضى في زهـــوه وتفاخره حتى تحولت القصيدة الى الفخر المباشر الصرف :

يقولون لي من انت في كل بـــلدة
وما تبتغي؟ ما أبتغي ، جلّ أن يُسمى

واني لمـــن قوم كأنّ نفوسَهم
بها أَنَفٌ أن تَسْكُن اللّحمَ والعَظْما

كذا انا يا دنيـــا ، فان شئتِ فاذهَبي
ويا نفس زيدي كرائِهَهَا قدمَـــا .

فلا عَبَرَتْ بي ساعة لا تُعزّني ولا صحبتني مهجة تقبل العُظما

ولقد بلغ في هذه الابيات غاية العتو ، خاصة عندمـا انف من ان تسكن نفسُه اللّحم والعظم ، ملمّاً في الان ذاته بفلذة من أجمل الشعر الوجداني لانها صدرت من أعماق نفس الشاعر بصدق وحدس

الفخر في الغزل

لم يكد المتنبي يتحدث بشعر غزلي صرف لانه لم ينصرف في حياته الى اللّهو والمجون كبشار وابي نواس وابن الرومي. هؤلاء كانوا يمثّلون واقع العصر بما فيه من ازدواجيّة جعلتهم يرتقون الى ذروة الثقافة في عصرهم وينحدرون الى حضيض الرذائل والموبقات والدنس في سلوكهم . اما أبو الطيب فقد أبى ان

ينحدر الى دركهم لأنه لم يكن شاعراً بل رسولاً ، وشعره تعبير عن رسالته . هؤلاء كانوا يمثلون الانسان الذي انفلت من كل قيد وكفر بجميع القيم ، اما ابو الطيب ، فكان يؤمن بالقيم ، وقد تولّد شعره من صراع القيم في نفسه مع واقع الفساد الذي كان يعايشه مع الحكّام والناس . لهذا فهو كان يرى في الحبّ شيئاً من الذلّ لا تسيغه نفسُه التي ما انفكت تعيش في قلب ملحمة البطولة. وهو اذا مـــا اضطرّ للإستهلال به في بعض قصائده المدحيّة مجاراة لواقع التقليد الشعري ، فانه يحوّله الى وصف ملحمي يجري العراك فيه بين سهام الجفون وجراح القلوب ، وما الى ذلك من معان بطوليّة ملحمية،كانت تأنس بهانفس الشاعر.

فهو يقول :

كمْ قَتيلٍ ، كما قتلت شهيدِ لبياض الطُلى وورْد الخدُودِ
وَعيُونُ المَهَا ولا كعيونٍ فتكَتْ بالمتيّم المَعْمُودِ
رامياتٍ بأسْهُمٍ ريشُها الهدْبُ
تشقّ القـــلوبَ قبل الجُلودِ
كلُّ شيء من الدماءِ حَرَامٌ شربُه ، ما خلا ابنةَ العنْقودِ

انت ترى ان الشاعر استهلّ في البيت الأول بالحديث عن القتل ، ثم انثنى في البيت الثاني فتحدّث عن الفتك ، كما انه ألمّ في البيت الثالث بالسهام والأهداب وشقّ القلوب والجلود، حتى انتهى في البيت الرابع الى شرب الدماء، وما الى ذلك من معان توهمنا ان الشاعر لا يصف عاطفة غزلية بل يصف معركة، توافق ما نفسه من ميل للتخاصم والصراع . فأين هذا الغزل الحربيُّ ،

من الغزل الذي نشهده في شعر بشار وأبي نواس وابن الرومي ، اولئك الشعراء الذين كانوا ، بالرغم من تعفـُّرهم في حمأة الرذيلة ، أكثر انسانيـــة من ابي الطيب في عتوِّه وعنجهيته الكاذبين في احيان كثيرة . وهذا النوع من الوصف ، شائع في غزله ، جميعاً . فهو يقول خلال مدحه لبدر بن عمار :

في الخدِّ إن عَزم الخليطُ رحيلا
مَطـَرٌ تزيد به الحدود مُحولا
يا نظرةً نفت الرقادَ وغادرت
في حـدِّ قلبي ما حييتُ فُلولا

والبينات على هذه الظاهرة تكثر في شعره ، مما لا جدوى من الاطالة بذكره .

الفخر الكلاسيكي في شعر أبي الطيب :

ان الفخر الكلاسيكي هو ذلك النوع من الفخر الذي لا يعبّر فيه الشاعر عن واقع نفسه الخاص ولا يصدر عن يقين واقتناع داخليين ، وانما يستوفي به الشاعر وجوه الفخر ، بعد ان يفيده مما هو شائع في الفخر العربي . وقد رأينا خلال دراستنا لنماذج سابقة من شعر الفخر العربي ، انه يقوم بصورة عامة على وصف القدرة على البطش والفتك بالاعداء ، وبكلمة عامة ، كان ذلك الفخر فخراً فروسياً يعتمد قوة الساعد ، بالاضافـــة الى بعض المميزات الخلقية الفسية . ولئن غلبت على فخر المتنبي النزعة الوجدانية ، فإننا نراه في كثير من قصائده يلمُّ بشيء من الوصف

الفروسي الذي يغلب عليه طابع التقليد من ذلك قوله :

مفرشي صَهْوَةُ الحِصانِ ولكنَّ
قميصي مسرودَةٌ من حَديدِ
لامة ، فاضَةٌ إضــاة دلاصُ
أحكَمتْ نَسْجَهَا يَدا داوُودِ
عش عزيزاً أو مُتَّ وانت كريم
بين طعْن القَنا وخفق البُنُودِ
فرؤوس الرماح أذهب للغيظِ
وأشفى لغلِّ صدْرِ الحَقَودِ

انت ترى ان الشاعر يفتخر بانه يمتطي أبداً صهوة الفرس ، وان قميصه من حديد وانه يُذْهب غيظه برؤوس الرماح. وهذه المعاني هي شبيهة بمعاني الحماسة القديمة ، وقد كان يطيب للشاعر ان يتغنَّى بها غناء لا تعقيد فيه ، ولا اضطراب نفسياً وراءه ، وهي تصدق فيه ، كما انها قد تصدق في سواه . لهذا قلنا إنها نوع من الفخر الكلاسيكي الذي يعـبر عن تفاخر الانسان بصورة عامة مطلقة من دون ما يتعقد في نفسه من احوال ومضاعفات خاصة . واذا ما شئنا ان ننعم بتحليل هذه الابيات ، لتحقق لنا ان الغلوَّ يغلب عليها ، إذ لم يُعرف عن أبي الطيب انه من الفرسان المغاوير او انه كان يُبلي في الحروب بلاءً حسناً . هذه الصورة تصدق في عنترة اكثر مما تصدق في أَبي الطيب . كما أنها قد تصدق في سيف الدولة وسائر الامراء الفرسان ، اكثر مـا تصدق في الشاعر او من دونه . وكذلك قوله :

سيصحب النصلُ مني مثل مضربه
وينجلي خــبري عن صمة الصمم
لاتركن وجوه الخيـل ساهمةً
والحرب أقوم من ساق عَلىَ قدَمَ
والطعن يحرُقها والزجرُ يقلقـُها
حتى كأنَّ بهـا ضرباً من اللمم

فالشاعر، كما ترى يفتخر بأنه أشجع الشجعـان وانه يترك الخيل ساهمة فوق القتلى، يقلقها الزجر ويحرقها الضرب، حتى كان بها جنوناً. وهذه المعاني سلفت منذ الفخر الجاهلي، حيث كان الشاعر يعتز بقوة ساعده وشدَّة صلبه، وانه يقتل الفرسان ويبقي الخيل ساهمة فوقهم:

او لم يقل عمرو بن كلثوم:

وَسيِّدِ مَعشرٍ قــد توَّجوه
بتاج الملك، يحمي المحُجرينـا
تَرَكـْنا الخـيل عاكفةً عليـه
مقلدَّة اعنتهـا صُفوُنـاً

وهكذا، نرى أن ابا الطيب لم يكن دائماً يصدر عن وجدانه في مدحه، بل طالما استقى من المعاني العامة التي قال عنها الجاحظ انها «مطروحة في الطريق» يتناولها من يشاء من الناس.

وقد يكون من الخير ان نتمثل على هذا النوع من الفخر بهذه الأبيات الاخيرة، إذ قال:

وبعض المعاني ، الا انها تعود فتلتقي ، جميعاً حول مبدأ واحد يوجز لنا حقيقة نفس الشاعر . فابو الطيب لا يصدر في هـــذا الفخر عن الانفعال الجزئي العارض بل عن تأمل، وتغور بعيدين يخلص اليها بعد تنازع وتوتر بينه وبين ذاتـه . وهو يعنى في هذا المجال بالدهر ، والمصائب التي تخني على الانسان . وقـــد جعل الشاعر يرى أن هذه المصائب ، هي ملازمة لطبيعة النفس البشرية،لا يمكن للانسان ان ينجو منها. لهذا ينبغي له ان يحسم موقفه بالنسبة اليها . وقد اتخذ المتنبي في هذا الامر موقفاً يشبه موقف الشاعر الفرنسي الفرد دي فنيي ، معتقداً انه من واجب الانسان ان يعتوَ على الدهر ، فلا يفجع عندما تحلُ به المصائب ولا يشعر بها بالرغم من احاطتها به من كل جـانب ، ولا يتقهقر ويرتدّ مهما أنعمت بأذاته والتنكيل به . فـالانسان ينبغي ان يمضي في السبيل الذي رسمـــه لنفسه ، غـــير مبال بالعراقيل والصعوبات . ولا تَحْسَبنْ ان هـذه النظرة ، هي وليدة نزوة عارضة ، او نقمة عابرة ، بل انها وليدة نظرة شاملة يقرر بهـا الشاعر مصير الانسان الدائم ويؤمن ان عليه ان ينتصر على الألم واللذة ، فتبقى حالته واحدة في جميع الأحوال . وإذا أمعـن الدهر بقهره فعليه أن ينتصر ، حتى على الدهر ، وذلـك بعدم الرضوخ ، وعدم التفجع عندما تلم بنا المصائب ناظرين كأنها لم تكن . وهذا ما يقترب به غاية الاقتراب الى الرواقيين. فهو يقول:

اين فَضْلي ، إذا قَنعتَ من الدهر

بَعيـــش مُعَجّل التنكيـــد

وبعض المعاني ، الا انها تعود فتلتقي ، جميعاً حول مبدأ واحد يوجز لنا حقيقة نفس الشاعر . فابو الطيب لا يصدر في هـــذا الفخر عن الانفعال الجزئي العارض بل عن تأمل، وتغور بعيدين يخلص اليها بعد تنازع وتوتر بينه وبين ذاتـه . وهو يعنى في هذا المجال بالدهر ، والمصائب التي تخني على الانسان . وقـــد جعل الشاعر يرى أن هذه المصائب ، هي ملازمة لطبيعة النفس البشرية،لا يمكن للانسان ان ينجو منها. لهذا ينبغي له ان يحسم موقفه بالنسبة اليها . وقد اتخذ المتنبي في هذا الامر موقفاً يشبه موقف الشاعر الفرنسي الفرد دي فنيي ، معتقداً انه من واجب الانسان ان يعتوَ على الدهر ، فلا يفجع عندما تحلُ به المصائب ولا يشعر بها بالرغم من احاطتها به من كل جـانب ، ولا يتقهقر ويرتدّ مهما أنعمت بأذاته والتنكيل به . فـالانسان ينبغي ان يمضي في السبيل الذي رسمـــه لنفسه ، غـــير مبال بالعراقيل والصعوبات . ولا تَحْسَبَنْ ان هـذه النظرة ، هي وليدة نزوة عارضة ، او نقمة عابرة ، بل انها وليدة نظرة شاملة يقرر بهـا الشاعر مصير الانسان الدائم ويؤمن ان عليه ان ينتصر على الألم واللذة ، فتبقى حالته واحدة في جميع الأحوال . وإذا أمعـن الدهر بقهره فعليه أن ينتصر ، حتى على الدهر ، وذلـك بعدم الرضوخ ، وعدم التفجع عندما تلم بنا المصائب ناظرين كأنها لم تكن . وهذا ما يقترب بهغاية الاقتراب الى الرواقيين. فهو يقول:

اين فَضْلي ، إذا قَنعتَ من الدهر
بَعيـــش مُعَجَّل التنكيـــد

أبداً اقطع البــلادَ وَنجمــي
في نُحوس ، وهمَّــتي في سُعودِ

فالشاعر لا يرى لذاته فضلاً إلا ان ينكل به الدهر ويخيبه، دون ان يذعن له ويحفل به. وهو يرى، على العكس ، بان قدْر الانسان يسمو بقدر مايزداد صبره على احتمال المصائب التي يرزئه بها الدهر . لاشك ان ابا الطيب كان ينطوي على كثير من التشاؤم في هذا القول وبخاصة عندما اعتقد ، ان الدهر لا ينفك يطلع عليه بنجم النحوس ، وانه ما برح يقــابل ذلك بهمة الصبر والسعود، إلا انه بالرغم من ذلك ،كان يعبر تعبيراً يقينياً صادقاً عما يعانيه في نفسه من ترفع حتى على الدهر ذاته .

وهذا المعنى يتردد ابداً في شعره :

لا َتلْـقَ دهرَكَ إلا غيرَ َمكتَرِثٍ
ما دَامَ يصْحَبُ فيه روحَكَ البَدَنُ
فما ُيديمُ سروراً مــا سررتَ بهِ
ولا يردُّ إليك الفــائتَ الَحزَنُ

فالشاعر يريد ان يزيل قيمة السرور والحزن ، او بالأحرى يريد ان يساوي بينهما حتى يصبحا حالة واحدة لا تأثير نفسياً ولا دلالة لها . فالانسان بنظر المتنبي ينبغي ان يكون فوق الفرح والحزن ، ويخيل اليه ان الإنسان عندما يفرح او يحزن يكون ضعيفاً، وذلك ان الفرح لا يديم السرور والحزن لا يرد الخسارة. فمن الغباء إذن ان ينفعل ويتأثر بالحوادث والبواعث الخارجية.

وفي بعض الاحيان نرى اباالطيب يرتفع على الدهر ، ويتخطّاه

في غلوائه وعتوّه ، حتى نراه يطلب المستحيل . فهو يريد ان يبلغ ما ليس يبلغه الدهر من ذاته :

أريد من دهري ذا أن يبلّغَني
ما ليس يبلغه من نفسه الزَّمَنُ

أ قوله ايضاً :

أودُّ من الأيام ما لا تودّه
وأشكو إليها بيننا وهي جنْدُه

ولعل تعاليه على الدهر وتحديه له ورغبته في الوصول الى ما ليس يبلغه الزمن من نفسه ليس سوى تقمص للشعور بالنبوءة . فليس ثمة إنسان يمكنه ان يتخطى نواميس القدر ويفعل ما لا قبل للزمن بفعله الا الأنبياء . وهذا ما أشرنا اليه اذ قلنا ان الفخر الوجداني في شعر أبي الطيب هو كثير التعقيد والتقمص، يتولد من حالات بعيدة التحول في وجدانه . ان وقوف الشاعر فوق هامة الزمن كان تقمصاً لذلك الوجيب الذي ما لبث يخفق في نفسة ويوهمه بانه اعظم الناس وان فيه شعلة ليست فيهم .

وسرعان ما يعتقد الشاعر انه تخطى الدهر ، مثيراً دهشته وإعجابه من شدة احتماله وصبره :

والدهر يعجب من حملي نوائبَه
وصبرِ نفسي على إحْدَاثه الحُطُمِ

أو قوله :

تمرَّستُ بالآفاتِ حتّى تركتُها
تقولُ أماتَ المَوتُ، أم ذُعِرَ الذِعرُ

ففي البيت الأول نراه يثير الدهر ويُدهِشه ، وفي البيت الثاني يرتفع بالمعنى إلى غلوٍّ لا قبل لإنسان به فيما عدا المتنبي . فهو لكثرة عتوِّه وترفُّعه ، جعل الدهر يعتقد ان الشاعر قد أمات الموت ، وجعل الذعر يذعر منه . وهكذا نرى ان المتنبي لا يتخاصم مع الناس ، فهم دونه ، جميعاً ، يرتفع عن منافستهم ، الى منافسة الدهر ، وما عتَّمنا ان رأيناه يرتفع متشامخاً على هامته . لا شكّ إن هذه العنجهية تستخفُّنا لاستحالتها . فهي تدلُّ على شيء من النفاق في الاعتراف بالواقع الذاتي ، الا انها كانت بالنسبة لأبي الطيب وليدة التقمُّص الذاتي ، اذ حقَّق بالالفاظ ما عجز عن تحقيقه بالأفعال . وهنا يبدو لنا ، أن تفجع ابن الرومي ، ولعنته للحياة وأبنائها ، ليس سوى وجه آخر لعنجهية المتنبي وعتوِّه . لقد شعر كلاهما بالفجيعة ، فبينما ازداد المتنبي بها شموخاً ، انهار ابن الرومي واعلن هزيمته وانسحاقَه . وفي يقيني ان انسحاق ابن الرومي بالرغم من دلالته على ضعف النفس البشريَّة ، هو أبعد انسانيَّة ، واصدق تعبيراً عن حقيقة الوجدان من عنجهية أبي الطيِّب التي تخفي وراء شموخها ، أسارير لا تقلُّ تجهُّماً ، وعبوساً عن اسارير ابن الرومي .

ومهما يكن ، فإن ابا الطيب لا يعتم ان يعلِّل ترفعه وعتوِّه بقوله :

اطاعن خيلاً من فَوَارِسها الدَهْرُ
وحيداً ، وما قولي كذا ومعي الصَبرُ

فهو ينتصر على الدهر بالصبر والجلد . ولقد ذكر ذلك في أبيات كثيرة نجتزيءُ منها بالابيات التالية :

قَدْ هوَّنَ الصَبرُ عنِّي كُلَّ نَازِلَةٍ
وليَّنَ العَزْمُ حدَّ المَرْكَبِ الخَشِنِ

أو قوله :

فإنْ أمرضْ فما مرض اصطباري
وإن أُحْمَمْ فَمَا حمَّ اعتزامي

وكذلك هذا البيت الاخير الذي يذكرنا بالشنفرى :

وأصْدَى ، فما أُبدي الى المَاء حاجةً
وللشَمْسِ فوقَ اليَعْمُلاتِ لِعَابُ

الكرامة او الموت :

ولقد ادَّى هذا المبدأ الذي آمن به المتنبي، او بالأحرى الذي طبع عليه طبعاً راغماً الى مظاهر اخرى في سلوكه ، كانت امتداداً أَو نتيجة لهذا اليقين . فالشاعر يعتقد انه على المرء ان يمثل دور البطولة على مسرح الحياة ، يدأَب ابداً للحفاظ على كرامته ، واذا لم يقدَّر له ان يحافظ عليها ، فينبغي ان يموت دونها ، فهو لا يطيق الجبن ، اذ انه يساوي الموت :

ذل من يَغْبِطُ الَجبانَ بعيشٍ   ربَّ عيش أَخف منه الحِمام

وكذلك قوله :

عش عزيزاً أَو مت وانت كريم   بين طعن القَنا وخفق البُنودِ
فرؤوس الرماح أَذهب للغيظِ   وأَشفى لغِلِّ صدر الحَقودِ

وهو كذلك لا يرى مجداً إلا في الحرب واكتساب الانتصارات:

ولا تَحْسَبَنَّ المَجْدَ زقاً وقَينةً
فما المجدُ إلا السيفُ والفَتكةُ البكرُ

وربما تمادى الشاعر فى إيثاره لكرامة النفس، حتى رأيناه يتقرَّب بها للناس من دون صِلة الرَحِم والقرابة الطبيعية. فأخوه ليس الذي تجمعه بـه أُبوَّة وأُمومة واحدة، بل ذلك الذي تجمعه به كرامة النفس:

وآنف من أخي لأبي وأمي   إذا ما لم أجده منَ الكرامِ

وهكذا، فإن خطيئة الحياة الكبرى، بالنسبة للشاعر هي الهوان:

غيرَ أَنَّ الفتى يُلاقي المنايا   كالحاتٍ ولا يُلاقي الهَوَانا
وإذ لم يَكُنْ منَ الموتِ بدٌّ   فمنَ العَجز أنْ تَموتَ جبانا

او قوله:

وإنا لنلقى الحادثاتِ بأنفسٍ   كثيرُ الرزايا عندَهُنَّ قليلُ
يهونُ علينا ان تصانَ جسومنا   وتَسلمَ أعراضٌ لنا وعُقولُ

والشاعر يعتقد ان الكرامة ليست في التفاخر بالأجداد، لأن الإنسان ينبغي ان يكتسب مفاخره، بنفسه وكفاءته. ولقد كان المتنبي وضيع الأصل، لا قبل له بالافادة من ذلك في فخره. ويقيني انه لو كان رفيع النسب لكان أسرف في التبجح به، كما أسرف بالتبجح بسائر فضائله. لهذا يمكننا ان نشهد في هذه الاقوال نوعاً من التعوض النفسي فالمرء اذ يعجز عن تحقيق الفضائل في نفسه، يحاول ان يحول نقائصه الى فضائل. اليكه

يقول :

مَا بقومي شرُفتُ ، بل شرُفوا بي
وبنفسي فخرتُ لا بجدودي

أو قوله :

ولستُ بقانعٍ من كل فضلٍ
بأن أعزى إلى جدٍّ همُام

تعاظمه على الناس كافة

الا ان الفخر لا يعتم ان يظهر لديه أشدّ تعقيداً ، مما بدا في الأبيات السابقة، إذ تزدوج نفسيته ، فتعلو شفتيه بسمة الكبرياء وبسمة الهزء من الآخرين ، حتى لا يتورَّع عن القول :

إن أكُنْ مُعجباً فعُجبُ عجيبٍ
لم يجد فوقَ نفسِه من مزيدِ

أو اقوله :

فما أنا منهم بالعيش فيهم
ولكنْ معدنُ الذهبِ الرَّغامُ

ويقيني انهذا الانفراد والتعالي علىهامات البشر ليس سوى تعبير غير مباشر عنالخزي الذي كان يشعر به ابو الطيب عندما كان يتعالى عليه اولئك النـــاس الذين لا فضيلة لهم الا فضيلة الولادة من أصل رفيع او فضيلة المـال والسلطة . انه انعكاس لشدّة شعوره بالنقص والجفاء والغربة فيعصر تكالب على المادة، من دون القيم الروحية والعقلية التي كان المتنبي يفخر بها . وقـد

يتحول هذا الشعور بالكبرياء الى نوع من الهجاء الحاقد الساخر يذكرنا بتشاؤم ابن الرومي ولعنته للحياة وابنائها . وهذا النوع من الفخر يبدو شديد الأسى تظهر فيه الفجيعة التي كان المتنبي يحرص على اتقائها والتستر بها :

وَدَهرٍ ناسُه ناس صغـــار
وان كانتْ لهمْ جثثٌ ضخامُ

وكذلك قوله :

اذمُّ إلى هـذا الزمانِ أهيلَـه
فأعلمُهم فَدْم، وأحزمُـهم وَغـْد
واكرمهم كلب ، وابْصَرَهمُ عم
وأسْهدُهمُ فهْد ، واشجعُهم قردُ

قد يخيل إلينا ان هذه الابيات أدل على الهجاء منها على الفخر. الا اننا اذ ننعم في تَقصِّيها تظهر لنا وراءها عنجهية المتنبي ، وغيظه من الناس الذين لا يقدرونه حقَّ قدر . انهـــا نقمة النبيِّ الذي نبذته رعيَّته ، ولم تعترف بسموِّ قدره ، وصفته الخارقة للطبيعة . وهكذا يبدو لنا ان شعور أبي الطيب بالقوة والتفوق ، كان شبيهاً بشعور مرضي يـــلازم صاحبه ، ويخفي وراءه جحيماً كالحاً من النقمة والرؤى السوداء الكريهة . ان ابا الطيب كان إلهاً ، لكنه إله جحيم ونقمة ووتر وأحقاد ، اكثر مما كان إله نعيم وبركة ورضى . فوراء عنجهيته وكبريائـه يختبيء غولُ الاطماع الذي لا يتورَّع عن المسخ والتدمير والتشويه ، كلما طاب له ان ينتقم لذاته المعفَّرة . لهذا نرى ان حقده أشدُّ

ما يتميَّز على الملوك لان هؤلاء يمثلون الحلم الذي استحال عليه ، ويمثلون وتره لانهم اتخذوا السلطة التي لم يكن يراها حرية بأحد من دونه . إنهم سالبو نعمته ، والمستأثرون بحقه . فلا بدع اذن ان يمسخهم حقده قروداً وأرانب وأوثاناً تافهة، حقيقة بالتحطيم :

أرانب غير أنهم ملوكٌ مفتَّحةٌ عيونُهم نِيامُ
بأجسامٍ يحلُّ القتلُ فيها وما أقرانُها ، إلا الطعامُ

وكذلك قوله :

ولا أُعاشر من أملاكِهِم مَلِكاً
إلا أَحق بضرْبِ السَيْفِ من وَثَنِ

وهو اذ تتعاظم به الحميَّة ويتسعَّر في دمه زهوُّ البطولة لا يرى لنفسه غايةً الا تضريب أَعناق الملوك :

ولا تَحْسَبَنَّ المجْد زقّاً وقينة
فما المجْدُ إلا السيفُ والفتكةُ البكرُ
وتَضْريب أعناق الملوكِ وان ترَى
لكَ الهَبَواتُ السُودُ والعَسْكَرُ المجْرُ

وهو لشدَّة تأثره بالمهدية وايمانه بنفسه ، لا ينفكُّ يتوقع أن تؤاتيَه الأيام فينفذ الى الأمر العظيم الذي كان يتوقّعه من نفسه كما كان الناس يتوقعون عودة الامام الذي يصلح من امر البشر :

وأَشْجَعُ مني كلَّ يوم سلاَمتي
وَما ثَبتَتْ إلا وفي نَفْسِها أَمْرُ

ان سلامته التي يتحدث عن أمر في نفسها، ليست في الواقع، سوى الشاعر نفسه ، الذي مابرح يتوقّع حدوث أَمر من الامور

يحقّق له حلمه الكبير . أولم يعبّر عن هذه الظاهرة ، ايضاً في رثائه لجدته إذ قال :

يقولون لي من أَنتَ في كلِّ بـــلدة
وما َتبْتَغي ?ما أبتغي جلَّ أن ُيسْمى

وهكذا ، نرى ان حلماً خارقاً ما انفكَّ يضيءُ في ظلمة نفس المتنبي ، ويعلّله بالحَدَث الاعظم . أولم يعـبر عن ذلك ايضاً في قوله :

أُريــدُ من زمني ذا أن يبلـّغَني
مـا ليس يبلغُه من نفسه الزَمَنُ

لهذا ، فقد لبث الشاعر يتعقّب طيلة حياته سراباً لا قرارَ ولا يقين له :

ولكنَّ قلبـاً ، بين جنبيَّ ما له
مَدَى ينتهي بي في مراد أحـدُّه

هذه الحيرة هي ما ندعوها ، في عصرنا بالحيرة الوجودية ،اذ لا ينفكُ الانسان يشعر بالنداءات الداخليَّة،وتتخطّف في نفسه إشراقات غامضة يـكاد لا يتوهمّها ببعض المطامع الخارجيَّة ويحققّها ، الا ويراها قد تعفَّت بين يديه ولبث يشعر انفي نفسه خواءً ، لا تشبعه المطامع والأماني . تلك حيرة الانسان بنفسه، بوجوده ، وقد شعر بهاالمتنبي أكثر من سواه، لان نفسه مابرحت تشعر بالغربة في عصرهـا المختلِّ المقاييس ، وان مملكتها ليست من هذا العالم .

خلاصة – كان بودلير يعتقد ان الشعر الحقَّ هو الذي يعبِّر

عن الصراع بين الواقع والمثل ، وما يوري في النفس من سويداء أو زهوٍّ بين تحقيقه وانهزامه . ولقـــد حقق المتنبي ، في شعره عامة ، وفخره خاصة، هذه النظريةاذ لا ينفك يصور لنا تنازعه لبقائه واحتضارَه الوئيد الصامت ومصيره الممزّق المكدود في مأتم الوجــود . وليس أبو الطيِّب في عنجهيَّته وعتوِّه ، سوى ذلك الإنسان المكابر الذي ترسّبت الخيبة في قاع نفسه ، وقـد أراد ان ينكرها، مخادعاً نفسَه ومخادعاً الناس، لانه لا يستطيع ان يستسلم ، واذا ما استسلم فسوف يتولاَّه الرعب من تفاهـة الانسان وعقمه وضآلته أمام جبروتالقدر ولغز الكون الفاغر فم الحيرة منذ الأزل .

الفخر في شعر أبي فراس

٩٣٢ - ٩٦٧

أَبنيّتي لا تَجْزَعي   كلُّ الأنام إلى ذهاب
قولي إذا خاطبتِني   من بين سترك والحجاب
زين الشَباب ابو فراسٍ   لم يمتّع بالشَبَاب

نشأ ابو فراس يتيما في بلاط سيف الدولة تتعهده والدته ، ويعطف عليه ابن عمه ويخرّجه على فنون الادب والقتال والفروسية . ولعلّ نشأته يتيماً في كنف والدة واجفة تنظر الى الحياة بتشاؤم وتردُّد وخوف ، أثرّ في عَصَبه ، وطبعه بتلك الوجدانية التي لا نلبث نستشفُّ عبرها ظلالاً وملامح قريبة الى ما الفنا مشاهدته في نفوس النساء . الا ان معاشرته لابن عمه بين صليل السيوف وقرعها اورى في نفسيته الرقيقة السريعة العطب ، عَصَباً فروسيّاً ملحميّاً ، تطعمّت به طفولتُه ، حتى لبثنا نشهد في شعره ملحمة الأبطال وعتوّهم ، وعاطفة البراءة التي تقربُ الى عواطف الأطفال . ولقـد ظهر ذلك في شعره

عامة ، ورومياته خاصة . اما فخره فقد حفل بالدفاع عن النفس ودفع الريبة والذلّ ، وتبرير الأسر ، وما الى ذلك من معان كانت ضرورية بالنسبه للشاعر الفارس . وهو في ذلك ، أشبه بجريح يتنازع ويعاني الاحتضار ، لكنه لا يبرح يُعولُ ويصيح ويهمُّ بالقتال .

وفي ذهوله وتنازعه ووحشته عبر السجن ، تشرق في ذاكرته البعيدة ، صورة والدته العجوز في منبج ، وقد تجعَّدت أساريرها واعتراها الهمُّ واليأس ، فيشفق لعذابها الذي لا جريرة لها فيه ، ويبثُّ لوعتَه بانغام كثيرة الوجد والحزن . ولا بدع ، فان والدته تمثل له ، وهو في الأسر ، الحنان البعيد الذي نَعُم به ، والوجه الوفيّ الأمين الذي لم ينسه ، ويخادعْه أو يجفه ، بعد ان ابتلاه الأسر . وهكذا ، فان قيثارة نفسه كانت تضرب على وتر ملحميٍّ ، تنبعث من ورائه أنغام موحشة قاتمة ، موجعة .

اما فخره بالذات وهو الموضوع الذي نجتزيء بدراسته من دون سائر مواضيع شعره ، فقد ظهر حيناً في فخر مباشر صريح ، وحيناً آخر في فخر تبريري ، يبدو فيه الشاعر جريحاً ، حاني الرأس بالرغم من عتوِّه وعنجهيته .

الفخر المباشر :

هذا النوع من الفخر ، قاله غالباً ، قبل أسره ، وفيه كثير من معاني الفخر القديم كعزّة الجار واقتحام الحروب والفتك بالاعداء ، مما يذكرنا ، بالفرزدق وعمرو بن كلثوم ، وسائر شعراء

الفخر التقليدي . ولعل أشهر قصيدة في هذا النوع من الفخر هي البائية التي استهلّها بقوله :

ألم ترَنا أعزَّ الناس جاراً   وأمرعُهم وأمنعُهم جَنابا

لنا الجبَلُ المطلُّ على نزارٍ   حللنا السهلَ فيه والهِضابا

ولقد وفق الشاعر في هذه القصيدة إلى إثارة الحماس بفضيلة الوزن والقافية ، وما فيهما من توقيع ثوري . إلا أن أبا فراس يكاد لا يعرف التعقيد النفسي والنفسي في فخره ، لذلك نرى ان وزن قصيدته ، ينفجر كما تنفجر نفسه ، ونرى ان الشاعر يعتمد في موسيقاه الشعرية على النغم الواحد الصريح الذي يهدر هدراً او يقرع قرعاً ، من دون تلك الأنغام الخفية الحسنة التوقيع التي نشهدها في فخر المتنبي ، وفي شعر ابي تمام والبحتري . ذلك ان أَبا فراس يعبّر عما يعانيه ببراءة وعذوبة ، فيبقى الإنفعال في شعره ، كما بدا في نفسه ، شديد الوطأة لم تَغْشَه المحسّنات الداخلية ، ولم يَفْتُنْه بالاساليب البديعية . لهذا يخيل الينا ان شعر أبي فراس ، في الفخر يقرب إلى شعر عمرو بن كلثوم بحدّة العاطفة وصدق الإنفعال ، والابتعاد عن الصقل والكد . فهو يقول مثلاً :

ولما ثارَ سيف الدين ثرنا   كما هيجت آساداً غِضابا

أَسنّته إذا لاقى طِعاناً   صوارمُه إذا لاقى ضرابا

ولما اشتدت الهيجاءُ كنا   اشدّ مخالباً ، واحدَّ نابا

فلمّا ايقنوا ان لا غياثٌ   دعوهُ للمعونة فاستجابا

ديارهم انتزعناها اقتساراً   وارضهم اغتصبناها اغتصابا

ولو شئنا حميناها البوادي كما تحمي أُسود الغـاب غابا

انت ترى انه لا فضيلة لهذه الابيات من الناحية الفنيـة الا فضيـلة الصدق . فالشاعر يعبر عن الاشياء كما تخطر له ، وكما يعانيها في نفسه . فليس ثمة ثقافة أَو تعقيـد وجداني يكثّف انفعاله ، ويجعله ابعد غوراً نفسياً ، واوغل في ضمير الاشياء مما نشهده في شعره . لهذا ، يخيل إلينا ان معاني ابي فراس في هذا النوع من الفخر تقرب من الانفعال البدائي ، فهو يغتبط بشعوره عندما انتصر على اعدائه ، وهذه الغبطة لا يشوبها كدَرٌ ، ولا ريبـة .

الفخر الوجداني ـ الروميات

لا نكاد نشهد في الروميات قصيدة تختص بالفخر من دون سواها ، وانما هنالك قصائد تمتزج بـين العتاب والاستعطاف والفخر . ولقد تعددت هذه القصائد لان أَسر الشاعر قد طال ، وتعددت كتبه الى ابن عمه ، في طلب الفدية . ونرى الشاعر يحاول ان يوفّق في هذه القصائد بين البؤس الذي يعـانيه ، والالحاح بطلب الفدية ، غير متخلٍّ في الآن ذاته عن عصبتـه الملحمي الذي يذكرنا أحياناً بالمتنبي . إليكه يقول في إحـدى قصائده :

دعوتكَ للجَفنِ القريـحِ المسهَّدِ لديّ وللنَّوم القليلِ المُشرَّدِ
وما ذاكَ بخلاً بالحياة وإنها لأولُ مبذولٍ لأولِ مجتدي
ولكنني اختار موت بني أَبي على سَرواتِ الخيلِ غيرَ موسَّدِ

لقد استهل الشاعر بالاستعطاف والشكوى ، وانثنى من ذلك إلى الفخر بأجداده . فهو لا يريد ان يموت حتف أنفه ، بل في الحروب والكفاح . ولا تعتّم ان تعصف في الشاعر حمية الاباء والفروسية ، فيتحوّل عن المواربة والاستعطاف ، ويتظاهر بقيمته امام ابن عمه :

فإن تفتقدُوني تفتقدوا لعُلاكمُ فتىً غيرَ مردودِ اللسانِ ولا اليدِ
يدافع عن أعراضِكُم بلسانهِ ويضرُب عنكم بالحسام المهنّدِ

وقد يبلغ الفخر الى صفاء الشعر والوجدانية إذ يقول :

متى تنجب الايام مثلي لكم فتى طويل نجاد السيف رحبَ المقلدِ
متى تنجب الايام مثلي لكم فتى شديداً على الأعداء غيرَ ملهَّدِ

فالشاعر ما برح يفتخر ، لكننا نشعر ونستشف وراء فخره حشرجة القنوط ، وقد تقارب بهذه الفلذات من عنترة . فقومه لا يعرفون قدره ولا يعترفون له بجميله .

ومهما يكن فإن الشاعر لا ينفك يتبرَّر في تلك القصائد بأنه قاَتلَ ، لكنه لم يدرك ان الدهر كان في عداد اعدائه :

ولم أدر ان الدهر في عَدد العدى وان المنايا السود يرمين عن يدِ

إلاّ ان السويداء تستبد بالشاعر فيعنو لها ، ويعترف بيأسه وجرحه ، مخالفاً بذلك المتنبي الذي لم يكن إلا ليزداد عتوّا تحت وطأة المصائب . ذلك أن ابا فراس كان أسيراً لا ينفك يواجه نفسه وهمومه ، يتمضَّغها ويشقى بها ، بينما كان المتنبي يشغل عن خيبته بجلبة نفسه ، وجَلبَة الحياة من حواليه :

مصابي جليل والعزاءُ جميلُ وظني بأن الله سوف يديلُ

جراح تحاماها الأساة مخافةً وسقمان : باد منهما ودخيـلُ
وأسْرٌ أُقاسيه وليل نجوُمه ارى كل شيء غيرهنَّ يزولُ
تطول ُبه الساعات ُوهي َقصيرة وفي كل دهْرٍ لا يسرُّك طولُ

فأين هذه الوحشة وهذا الانكسار اللذان يعبر عنهما الشاعر من عنجهية المتنبي وعتوّه؟؟ لا شك ان شعر هذا الاخير كان أَشد كثافة في الاسلوب الفني واكثر تعقيداً وتقمصاً من الناحية النفسية ، الا ان ابا فراس كان اكثر تأثيراً في النفس. فالمتنبي يمثل شخصاً بعيداً عنا، ملامحه غير ملامحنا ، وبطولاته غير بطولاتنا، ودعوته غير دعوتنا . اما ابو فراس فانه يمثل انسحاق الانسان ومعاناته لمصيره . انه يؤنسنا، ويقترب الينا في ضعفه وانسحاقه، بينما يبتعد المتنبي عنا في جبروته ونقمته . الا ان الشاعر لا يعتم ان ينهض في نهاية القصيدة من وهدة اليأس فيقول:

لقيت نجوم الليـل وهي صوارِم
وخضت سواد الليل وهو خيولُ
ولم أرع للنفس الكريمة خلةً
عشية لم يعطف علي خليلُ
ولكن لقيت الموت حتى تركتها
وفيها وفي حدّ الحسام ، فلولُ
ومن لم يوقّ الله فهو ممزق
ومن لم يعزّ اللهُ فهو ذليـــلُ
ومن لم يرده الله في الامر كلّـه
فليس لمخـلوقٍ اليـــه سبيلُ

هذه الابيات تظهر تلهّج الشاعر وتنازعه الدائم بين الاباء والذل ، بين اليأس والأمل ، بين الاعتراف والتبرير . ولقد شخص فيها الموت والخيول والصوارم والله والقدر ، وهذه الالفاظ ليست سوى عناوين للأزمة التي كانت تعقد في نفسه . ولا بدع في ذلك ، فالشاعر ليس عالماً يقرر الاشياء وفقاً لسنّة لا تتغير ، وانما هو ناقل للحظة النفسية التي يعانيها تحت وطأة تجاربه وتقلبات طبعه . فحيناً كان ابو فراس يشعر بذل الأسر وانسحاق القيد فتهي نفسه وتفيض بالشكوى والأسى . وحيناً آخر كانت تستفيق في نفسه ذكرى امجاده الماضية وامجاد اجداده ، فينهض من كبوته وتتحفز نفسه من جديد بالامل ، ويشعر كما لو كان حراً . وهو ، بالرغم من تناقض الأحوال التي يعبر عنها ، كان صادقاً ، لانه يعبر عن حالات وجدانية مختلفة . فها هو يعتو ويتشامخ في القصيدة التالية مما يذكرنا بالحالة التي كان يعانيها في بائيته قبل الاسر :

إن زرتُ خرسنةً أسيراً ... فلقد حللتُ بها أميرا
ولقد رأيت النار تنتهب ... المنازل والقصُورا
ولقد رأيت السبي يجلب ... نحوَنا حوّاً وحورا .
ان طال ليلي في ذراك ، ... فقد نعمتُ به قصيرا
ولئن لقيت الحزْنَ فيك ، ... فقد لقيت بك السُرورا
صبراً لعلّ الله ... يفتح هذه فتحاً يسيراً
من كان مثلي لم يَمُت ... إلا اسيراً او أميرا
ليست تحل سراتنا الا ... الصدور أو القبورا

انت ترى ان الشاعر في ازدحامه بالتعبير عن حماسه لم يكد يُعنى بالعبارة وصقلها ، فأتت كثيرة القلق والاضطراب بالرغم من دلالتها على الحماسة والفخر ، من خلال القافية والوزن . فأبو فراس في شعره ليس فناناً بقـــدر ما هو محام يعنى بالقول المؤثر والحجَّة المقْنعة ، من دون التثقيف والتنقيح اللذين هما في اصل التجارب الفَنية الخالدة . ولعله من الضروري ، في سبيل تحليق فخره ، وتقييمه من الناحية النفسية والفنية ، ان نلمَّ بدراســة نموذج من شعره دراسة وافية .

الرائيَّة

أُسر أبو فراس عند الروم كما ذكرنا فيما كان عائداً من إحدى رحلات الصيد . ولما تعذرت مفاداته ، طفق ينظم القصائد التي يعبِّر فيها عن ألم الأسر ، متبرئاً من الذل ، ذاكراً دفاع صحبه عنه ودفاعه عن نفسه ، منيطاً أَسره بحكم من أحكام القـــدر الظالمة . وفيما يلي قصيدة رائيَّة ، تصدى فيها لهذا الواقع ، واصفاً شجاعته ، ومنَّة الروم عليه ، لانهم لم ينتزعوا ثيابه عنه ، كما انه يذكر تناسي أهله ، متشبهاً بالبدر الذي لا يفتقد إلا فيما تدلهمُّ ظلمة الليل . بعد هذا يعود الشاعر فيفتخر ببني قومه ، وأنه لا توسط بينهم ، فإما ان يكونوا في العليـاء ، وإما ان يكونوا في القبر . وفي النهاية يدعي أنهم أعلى ذوي العُلي ، وأَعظم من يسعى على التراب .

نقد رائية أبي فراس في تعليل أسره

ترمي هذه القصيدة الى مرام متعددة ، ففي مطلعها تغلب السيرة الشخصية ، اذ يلم الشاعر بكيفية أسره فيقول :

أُسِرْتُ ، وما صحبي بعزْلٍ لدى الوَغَى
ولا فَرَسي مهرٌ ، ولا ربُّه غمر
ولكن متى حمَّ القضاء على امرىءٍ
فليس له برٌّ يقيه ولا بحْرُ

في هذه الأبيات تظهر نفسيّة ابي فراس التي تكاد لا تهي وتضعف قليلاً ، حتى يعود الشاعر فيشرئب من جديد ، متطاولاً متشاوفاً بنفسه ، ينظر الى الذروة ، بالرغم من انه يُتعي في حضيض البؤس والذلّ . ونراه في البيت الثاني يحاول ان يرفع مسؤولية الأسر عن كاهله ، ويَنيطها بالقدر . وهذا الامر يبدو طبيعياً في ظاهره ، لكننا إذ نتقصاه يتحقق لنا أنه يشتمل على بعض المضاعفات والتعقيد . ذلك ان الشاعر ، عانى كثيراً من الذل خلال أسره فلم تطق نفسه وطأته ، وحاولت ان تتحرر منه بهذا التبرير ، وهذا النوع من التعليل النفسي الذي يقوم على فضيلة المنطق المعكوس . فالشاعر يؤمن إيماناً راغماً ، ويسعى لاكتشاف الاسباب التي تحققه وتبرره . وشعر ابي فراس من هذا القبيل لا يعرف المعاني والصور المظلمة ، التي تخطف بلحظة من لحظات الحدس في نفس الشاعر ، بل ينقل ما يخطر له من معان ، هي ، غالباً ، نتائج واضحة لأسباب بعيدة غامضة . ومهما يكن ، فأن تعليل أبي فراس ، عبر هذين

البيتين ، يقترب غـــاية الاقتراب الى التعليل الشعبي ، الذي لا يشتمل على كثير من التوغل في اكتشاف الحقائق النفسية البعيدة الاغوار . فأي الناس من عامة القوم ، لا يدعي ان المصيبة التي ألمت به ، هي حكم من احكام القدر .

عراكه مع الروم

بعد هذين البيتين ، ينثني الشاعر لذكر ماجرى له وصحبه؛ عندما غدر بهم الروم فيقول :

وقال أُصيحابي : الفرارُ أم لردى
فقلت ، همـا أمران ، أحلاهما مرُّ
ولكني أمضي ، لمـــا لا يُعيبـني
وحسبك من أمرين ، خيرُهما الأسرُ

ففي هذين البيتين يتحوّل الشاعر عن التأمـل والاعتراف بالواقع الوجداني ، الى ذكر الحوادث التي ينعم فيهـــا بالتمرّد والتهرُّب من النفس . لقد كان أسره محتماً عليه ، لا مفر منه كما أسلفنا ، وذلكَ انه اقتحم المعركة وتحتم عليه امران ، فإما أن يهرب وينجو بنفسه ، وإما ان يقتحم القتال ويؤسر . ولقد فضل الأسر على الهرب . فالأسر يدلّ على ان الفارس ليس جباناً ، بل على العكس ، عندمـــا تُحيق به المخاطر فهو يقتحمها ، بالرغم من هولها . ففي الأسر دلالة على الاستبسال واللارجوع . وهكذا ، فإن تفضيل أبي فراس للأسر على الهرب ، كان وجهاً من وُجوه البطولة الفروسية التي تلازم نفسيته بتأثير العصر . الواقع ان

قيمة الفضائل والأخلاق متصلة اتصالاً حميماً بواقع العصر والبيئة. فإذا كان عصر حروب وتنازع وقتال، فأن المرء لا يسمو على اقرانه، إلا إذا تحققت فيه الفضائل الحربية كقوة الساعد، والمهارة في القتال. لهذا، فأن فخر أبي فراس يكاد ان يقتصر على فضائل الفروسية.

ومهما يكن، فأننا لا نشهد في فخره، خلال هذه الأبيات، تلك الكبرياء وذلك العتو، اللذين كانا يطالعاننا في سائر قصائده، قبل الأسر، كتلك القصيدة التي وصف بها غزوهم لأهل قنسرين. إن فخره خلال هذه القصيدة، هو فخر رجل منحني الرأس، مخذول، يتشبث القيد بيده، كأنه يعلن عاره على الملاء. ولئن كان يلم في سائر قصائده بمعاني الفخر الكلاسيكية، معتزاً بانتصاراته وانتصارات بني قومه في الحروب، فإن التبرير يغشى هذه القصيدة بكثير من الوجدانية التي فاضت عن بؤسه. الا ان نزعة التعليل أضعفت من قوة هذه القصيدة، لأن الشاعر ما ينفك يرهقها بالبينات والحجج. فهو يقول «أسرت» ثم يردف بقوله «وما صحبي بعزل» وقد جاءت الفكرة الثانية تعليلاً للفكرة الأولى وتبريراً لها. وكذلك يستأنف بقوله «ولكن» وهذا الاستدراك هو مظهر لنزعة التفسير التي يصبح بها شعر ابي فراس، شبيهاً بشعر ابن الرومي، في غلبة الصبغة النثرية عليه.

وأيّاً ما كانت الحال، فان السرد والتعليل يلازمان، غالباً واقع الشعر الوجداني. ذلك ان هذا النوع من الشعر يذكر ما

ألمّ بالشاعر فعلاً . فلو تصدّى ابو فراس الى وصف حالة أسير يعرفه ، لكان شعره غنائياً ، ولكن ليس وجدانياً . ولكن فيما تصدى لواقعه الخاص ، الذي عاناه خلال أسره ، فانّ شعره غدا وجدانيّاً .

والقصيدة جميعاً تجري على هـذا الغرار إذ لا ينفكّ الشاعر يترافع بالدفاع عن نفسه :

يقولون لي بعت السلامة بالردى
فقلت : أما والله مـا نالني خسرُ
هو الموتُ فاصنع ما حلا لك ذكره
فلم يَمِت الإنسان ما َخلدَ الذكرُ

خلال هذين البيتين يتحوّل الشاعر مـن اسلوب الرواية إلى الحوار . ولعل ذلك الحوار هو في الواقع ، تحاور بينه وبـين نفسه أكثر مما هو يحاور شخصاً آخر . ويخيّل الينا حيناً ، ان بطولة الشاعر هي بطولة نفسيّة أكثر ممّا هي بطولة مادية . فهو لا ينفك يتحدّث بما يجري في نفسه من تنازع بين البطولة والهوان ، ويحاول دائماً ان يؤكد انه اذا أُهين وذل ، فذانك الهوان والذل هما خارجيان ، لا يؤثّران على ما في نفسه من بطولة داخليّة ، تأبى الاستسلام والخنوع .

وجه الموت :

الا ان الشاعر ، خلال القصيدة ، جميعاً ، لا ينفكّ يطالعه وجه الموت . وذلك أمر طبيعي في امرىء يرى أنه لا بطولةَ ولا

جدوى من الحياة ، إلا في الانتصارات الحربيّة . فهو اذ يلج المعركة ، لا يواجه الأعداء بقدر ما يواجه الموت . وحديثه الدائم عن الموت هو تعبيرٌ عن التردُّد الذي يعانيه في نفسه ، او بالأحرى انه وجه لتنازع الشاعر بقاءه . وكلّما اقتحم معركةً ، كان ذلك تجربة من تجارب الموت . لذلك نراه يقول :

وهل يَتَجَافى عنّيَ الموتُ ساعة ،
إذا ما تَجَافى عنّيَ الأسرُ والضرُّ
يمنّون أن خلّوا ثيابي وإنما
عليّ ثيابٌ من دمائِهِم حمْرُ

فالشاعر يرى أنه إذا ما نجا من الأسر،فلن ينجوَ من الموت. وإذا نجا منه في حين ، فسوف يتردّى به في وقت آخر . وإذا لم يكن من الموت بدٌّ ، فعلى المرء أن يختارَ الميتةَ الشريفةَ ، او كما يقول أبو فراس في هذه القصيدة : « ولم يَمُت الإنسانُ ما حيِيَ الذِكرُ . » ولقد اقترب بذلك إلى المتنبي إذ قال :

وإذا لم يكُنْ من الموتِ بدٌّ فمن العارِ ، أن تموتَ جباَنا

لا شكّ أن فكرة الموت هي اشدُّ فكرة تراود الإنسان ، ذلك أن الموت ، هو الجدار الذي لا يمكن ان َننفذ منه . وهذه الفكرة تردّدت ، ايضاً، في شعر َطرَفَة ، حتى ُخيِّلَ إلينا ، أنّه كان يعيش في خاطر الموت . الا ان ابا فراس لا ُيواجه مشكلة الموت في هذه القصيدة بالتعقيد الذي شهدناه في معلقة طرفة، بل واجهها بفكرة تقترب غاية الاقتراب الى التفكير العامي . فالإنسان ، بالنسبة لأبي فراس ، لا يموت

إذا ما ابقى ذكراً دونه . أولا يتداول العامة بهذه الفكرة في مآتمهم ؟ وذلك جميعاً يدلنا على ضعف الثقافة في فخر ابي فراس. فهو لم ينفذ من مشكلته الخاصة ، الى مشكلة المصير الانساني وصيرورة العدم ، بل التفت إلى تلك المأساة الفاجعة بعينين ساذجتين ، تغشيان ظاهر الأمور ، من دون اعماقها المدلهمة .

وطرفة بالرغم من كونه جاهلياً ، فقد لبث يلحّ في التساؤل عن سرّ الموت حتى رذل المعتقدات الجاهلية ، ونفذ الى رُعب الجمية والعدم . فأين ما نشهده في شعر طرفة من نظرة معقدة ، ملحاح بالنسبة للموت ، من هذه النظرة التي تطالعنا في فخر أبي فراس مع كثيرٍ من العقم ؟ ذلك أن ابا فراس تهرّب من مواجهة الأمور ، ولم يتولى الولوج الى الأسباب البعيدة . فما جدوى الذكر الذي يبقيه بعده ، إذا ما أصبح هو قبضة من التراب البارد الموات . وهذه الفكرة ، فكرة الموت ، لا تستسلم ، وهي لا تنفكّ تطأ الإنسان بقوة ، حتى جعل يخيّل لبعض الباحثين ، أنّ الانسان ابتدع الله من نفسه ، لينتصر به على الموت . وهنا يلتقي الدّين بالفلسفة ، كما أنها يلتقيان ، جميعاً ، بالشعر . ذلك ان الشعر ، ليس في الواقع ، سوى تعبير عن فهم الإنسان للكون وما يتّصل به من خلال الأعصاب ، بينما تحاول الفلسفة ان تفهم الكون بواسطة العقل والدين بواسطة الإيمان الغيبي .

عودة الى الفخر

بعد هذه الفلذة التي تحدث بها الشاعر عن الموت ، نراه قد

ارتدّ إلى الفخر ، إذ ذكر أنّ الروم يمنون عليه بأنهم لم ينتزعوا ثيابه عنه ، فيجيبُهم بأن الدماء التي خضّبت ثيابه هي دماؤُهم. وقد بدت قصيدة أبي فراس بذلك ، كأنها مجموعة من الافكار والخواطر دون توحُّد أو تطوُّر . فهو يقول :

وقائم سيف فيهم اندقّ نصـــله
وأعقاب رمح ، فيهم حطّم الصدْرُ

سيذكرُني أهلي إذا جدّ جدُّهم
وفي الليلة الظلماءِ يُفْتَقَدُ البدْرُ

ولو سدّ غيري ما سَدَدْتُ اكتفوا به
وما كان يغلو التبْرُ لو نَفَقَ الصفْرُ

ان وجدانية أبي فراس تظهر في تشبيهه بالبدر الذي يفتقد في الظلماء . فأهله يصدُّون عنه ، ويهملون فداءه ، حتى اذا ألمت بهم النكبات افتقدوا بدر بطولته . وهذا الامر يصحُّ في الحياة ، جميعاً ، فالإنسان ، لا يدرك قيمة الأشياء ، الا عندما تشتـدُّ حاجتُه لها . ولعل الأشياء ، كافة ، لا قيمة لها ، إلا بالنسبـة لحاجة الانسان إليها . إلا ان قيمة هذا البيت ، ليست في صحته بالنسبة للمنطق الشائع ، ذلك ، ان اغلب ما نتحدث به ينطوي على كثيرٍ من الحقائق الشائعة المقرّرة . والحقائـــق هي مادة للنثر ، وليس للشعر . وليس ، ثمة من قيمـــة للشعر ، إلا في اكتشاف الحقائق النفسية الغامضة البعيدة الغور ، وبواسطـــة الشعور . فالعـــالم هو الذي يتحرّى الحقائق بواسطة الحدس المنطقي ، بينما يكتشف الشاعر الحقائق النفسية ، بواسطة الحدس

القلبي . وهكذا ، فان قيمة هذا البيت هي في تعبيره الحيّ ، المباشر عن واقع نفس الشاعر . ولو قدّر لأبي فراس ان يصفوَ، بكثير من هذه الفلذات الفنية الرائعة ، لكان ألّف ، في فخره بين شدة الإخلاص ، والدربة الفنية ، البعيدة ، مرتفعاً بشعره الى مستوى هموم الشعر الإنساني الدائم .

الصدر او القبر :

وفي نهاية القصيدة يعود الشاعر الى الفخر بقوله :

وَنَحْنُ أُناسٌ لا توسُّط بيننا
لنا الصدْرُ دون العالمين أَو القَبْرُ

لقد شهدنا أَن الشاعر كان منذ حين يلوم بني قومه ، ويذكّرهم بافتقادهم له عندما تدلهمُّ عليهم ظلمة المصائب . أما الآن فإنه يخالف بل يناقض ما سبق ان ألمّ به ، ويدّعي ان بني قومه « اعلى بني العلى ، واعظم من فوق التراب » . فكيف يمكن ان يوفّق بين هذا القول والقول السابق . والواقع ، ان الشاعر لاينفكُّ يفتخر يبني قومه بالرغم من تباطئهم في مفاداته . فهو يستمدّ كبرياءه من كبرهم ، وعظمته من عظمتهم .

ومهما يكن ، فإن ابا فراس يبدو خلال هذه القصيدة كثير الإنفعال ، شديد الاخلاص ، لكنه يفتقر الى الثقافة الفنية والثقافة الإنسانية لينهض بشعره من واقعه الخاص ، ويغدو رمزاً للمعاناة الإنسانيه . لا شك ان الاخلاص ضروري للتجربة الشعرية ، لإنه اذا افتقد الإخلاص ، فإن تأثير الشعر ينعدم .

ولكن الإخلاص وصدق الإنفعال لا يكفيان للتجربة الفنيـــة الخالدة ، بل ينبغي لهما الثقافة التي تفيض بالشعور ، وتنفذ به الى أبعاد نفسية لا قبل للانفعال البدائي العنيف بالولوج اليها بالرغم من صدقه .

الفخر في شعر الشريف الرضي

٩٦٩ – ١٠١٥

نشأ الشريف في بيئة إجتماعية شبيهة بالبيئة التي عايشها المتنبي[١] في اختلال المقاييس واضطراب القيم الخُلُقيَّة والإجتماعية . الا ان الشريف الرضي كان يختلف عن المتنبي اختلافاً جذرياً في واقع ولادته وأصله ، بالرغم من تشابههما بالنفسيَّة والطموح . والواقع ان نسب الشريف يرتفع من جهة والده الطاهر ذي المناقب أبي أحمد الحسين الى موسى الكاظم ، ثم لا يزال يتعالى حتى يوفي الى الحسين . وهكذا ، نرى أنَّ الشريف تيقَّظ للحياة وهو يعيش في عائلة توارثت المجد أباً عن جد . فأبوه كان يلي المظالم وإمارة الطالبين ويسعى للتوفيق بين المُتَخاصمين في الامور الجلل وقد أُغدقت عليه الألقاب وانهالت عليه النِعَم . لهذا كان طبيعياً ، ان تتفتَّح في نفس الفتى براعم الطموح ويتوثَّب للمراكز العليا ، يشجعه على ذلك اصله الشريف ، واضطراب السياسة في عصره

١ – بين وفاة الاول وولادة الثاني اربع سنوات فقط .

بالإضافـــة ألى تألّق نجم العلويين ، عصرئذ ، وانشاءهم الدول الكبرى العزيزة الجانب . وهكذا ، فان الشريف كان يتطلع في فتوّته الى الاحلام التي لبث المتنبي يَتَطَـلّـع اليهـا ، ولئن كانت أحلام المتنبي أَقرب الى الغرور والوهم والمستحيل ، فإن أحـلام الشريف ، كانت كثيرة الاقتراب من الواقع . فقـــد كان له من وجاهة أبيه ، ورفعة أَصله ، ما يمهّد له سبل النجاح . الا أنـه لبث يهجس بهذه الاماني ، دون ان يقـدّر له أَن يحقـّها ، أَو ان يدعوَ لها دعوةً ساقرة ، كما فعل المتنبي في ادعائه للنبوءة . لهذا كانت احلامه تثور وتتنزى من خلال شعره ، اذ لا ينفكُّ يذكر خـلال قصائده ، جميعاً ، تحفـّزه للوثوب ، مصوّراً الثورة التي سوف تُطيح بالنظام القائم وتجري سيول الدماء . فهو يقول مثلاً :

وعليَّ أَن يطأَ العراقَ وأَهلها   يومٌ أَغرُّ من الدِمَاءِ مُحَجَّلُ
يومٌ تزلُّ به القلوب من الردى   جزعاً،وأَحرى أَن تزلَّ الأَرجُلُ

انت ترى ان الشاعر يتوعد ويتوثب مصوّراً حفيظتَه من خلال المعاني بالإضافة الى الألفاظ الشديدة الدوي والجلبة . والشريف يختلف عن المتنبي في سبيل الوصول الى العلى . فبينما كان المتنبي يسعى للوصول الى ذلك بالنبوءة او بالحظوة نرى الثاني يتلظـّى بالحقد والنقمة ، ولا يريد ان ينال السلطة فقط بل يريد أن يجري سيول الدماء وينتقم ايضاً . وهذا الأمر عظيم الأهمية في الدلالة على واقع الفخر في شعر الشريف . فهو لا يريد السلطة لان لديه من الكفاءة اكثر مما لدي الآخرين الذين يتولّونها ، بل يطلبها كمن يطلب حقـّاً مهضوما وإرثاً مغصوبا .

لهذا فهو لا يكتفي بولاية الحكم بل يريد ان يفجّر بغداد ويصبغها بالنجيع . وهو يحيا على توقع دائم ، وعلى موعد مجهول ، ساعياً للوصول الى مبتغاه ، ، أكان بالعَرَب الخُلّص وإذا تعذر عليه الأمر فانه سيشدُّ للثورة بالروم :

وَعَنْ قُرْبٍ سَيُشْغِلُني زَمَاني
بِرَعْي الناس ، لا رعْي القُرُومِ
وَما لي من لقاءِ الموت بدٌّ
فما لي لا أشدُّ له حزيمي
سألتمس العلى ، إما بعرب
يُرَوُّون اللهَازِمَ أو بروم

وقول الشاعر إنه سيطلب العلى اما بالعرب او بالروم ، يدلنا على ازدحامه وتسعره وعجزه عن الصبر . وهذه الفكرة لا تنفك تتلهج وتتكرر في قصائده جميعاً ، وهو يكاد لا يفتخر ، حتى يلم بها ، مكتفياً حيناً بالإشارة العابرة ، وحيناً آخر يترسم المشهد بوضوح وتقرير كأنه يجري في حقيقة الواقع . فهو يحقق بالشعر أحلامه ويراها بأم عينيه من خلال اللفظ :

توقعوها ، فقد شبّتْ بَوارقُها
بعارض كصريم الليل مَدْجُونِ
اذا عَدا الأفق الغربيُّ مُختَمراً
من الغبار ، فظنّوا بي وظنّوني
لتنظُرني مشيحاً في مقدّمِها يغيب بي النقع ، احياناً ويُخفيني
لا تعرفوني إلا بالطعان إذا أضحى لثامي معصوباً بعِرنيني

إقدام غضبانَ كظّته ضغائِنه   فمالَ يضربُ مخلوطاً بمطعونِ

هذه الأبيات ادلُّ من الاولى على حقد الشاعر ، لانها اكثر واقعية ، وفي الآن ذاته اكثر وضوحاً اذ نراه يتحدث عن ضغائنه بصورة سافرة ، جليّة ، حتى ليخيّل الينا أنه لا يثور في سبيل السلطة بقدر ما يثور في سبيل النقمة والتشفّي .

الا ان الشريف بالرغم من إعلانه لنقمته وثورته ، كان اكثر واقعية من المتنبي . فهو يعرف مرارة الواقع واستبداد الحكام وتقلُّب الايام. فمنذ ان كان في العاشرة من عمره خلع عضد الدولة والده عن النقابة واسره في قلعة فارس وصادره على املاكه . وقد كان الشريف كثير الإعجاب بوالده ، يرى فيه تجسيداً لمطامعه ووجهاً من وجوه فخره وسؤدده . فثار وهجا ، لكن ثورته لم تُجدِه ، وذلك جعله يدرك ان التفكير بالشيء يختلف غاية الاختلاف عن تحقيقه .

ومهما يكن فإن حياة الشريف لم تكن تامة الجدب ، اذ ان الطائع استقدمه وولاه النقابة بعد ابيه وخلع عليه الخِلَع التي زها وتفاخر بها . لكنه ما عتم ان شَهِد الجند يغدرون بالطائع على مرأى منه ، وقد همّوا به ليقتلوه لو لم ينج بنفسه . ولقد كانت هذه الحادثة عظيمة التأثير في نفسية الشاعر ، اذ جعلته يخشى السلطة ويكره منكرها ، دون ان يتخلى عن احلامه القديمة . ولقد كان ابو اسحق الصابي الكاتب الشهير يزين له الخلافة ويتنبّأُ له بأنه سيرتقي في العلياء أعلى مرتقى . فيجيبه الشريف :

لئن بَرقَت مني مخايلُ عارضٍ وأجريت في ذا الهندواني رونقا
فليس بساقٍ قبل ربعك مربعا وليس براق قبل جوك مُرتقى
وإن صدقت مني الليالي مخيلة تكن بجديد الماء اول من سقى..

ولقد جعل الشريف يعد نفسه للخلافة ، ويتزيا بزيها وينفذ رسله إلى القبيلة يبثون دعوته حتى قُتِل أحد دعاته ، فثاب الى نفسه وتهزأ منها بقصيدة يقول فيها :

فَيَا عَجَباً مما يظنُ محمدٌ
وَللظنُّ في بعضِ المَواطِنِ غرَّارُ
يقدِّر أن الملْكَ طوعَ بنَانه
ومن دون ما يرجو المقدِّرُ أقْدارُ
له كلَّ يوم منيةٌ وَطَمَاعـةٌ
وَنَبْذُ قريضٍ بالأمـاني سيّارُ
لئن كان أعفى للخِلافَـة لمَّةً
لها طررٌ فوقَ الجبينِ وأطرارُ
وأبدى لنا وجهاً نقيّاً كـأنه
وقد نقِشت فيه العوارِض دينارُ
ورام العلا بالشِعر والشَعْر دائبـاً
ففي الناس شُعْرٌ خامِلونَ وشُعَّارُ

وهكذا يعود الشاعر فيرى نفسه من جديد وقد أقعى على حضيض الواقع ، يحدق بسراب الخلافة البعيد ، الذي ما انفك يتلمع امامه . وفي أحيان كثيرة نراه يَقنط ويَيأس ، ولا يجد له متنفساً إلا شعره ، يبث به ما يعانيه من غيظ وسويـداء ،

فينبري متفاخراً ، هاجياً في الآن ذاته العباسيين الذين اغتصبوا ملك آبائه بقوله :

ردُّوا تراث مُحمَّـــد ردُّوا
ليس القضيبُ لـكم ولا الـبرْدُ
هل عرَّقَـتْ فيكم كَـفَاطِمَةٍ
أم هل لـكم كَـمْحَـمَّدٍ جَـدُّ
إن الخلائِفَ والألى فخَـرُوا
بِهِـمْ عَلَـينا قَبْلُ أو بَعْدُ
لهُـمُ لنا ولجـــدِّنا خلقوا
وهم صنائعُنا إذا عـــدُّوا

الا ان الايام كانت تجري سريعة والعمر يمر دونـــه ، وهو لا ينفكّ يشعر ان مطامعه استحالت، فهـذا القنوط يغشى نفسه، معانياً حالة شبيهة بالحالة التي عاناها المُتنَـبِّي إثر رحيله من بلاد سيف الدولة وانخـــذاله في مصر ، بعد ان سجد لعبدٍ خصي ككافور. الا ان سورة يأسه وقنوطه لم تبلغ التعقيد والازدواجية اللذين شهدناهما في شعر أبي الطيب. فهو يائس بعد ان كان ناقماً ، والثورة التي ما برح يهدّد بها ، مصوّراً حيناً المعركة ، وحينـاً آخر سيول الدماء ، قد اوشكت آثارها ان تتعفّى ، وتحوّل التهديد بالثورة الى تهديد بالمهاجرة الى مصر حيث كان الفاطميون. لقد كان يقول قبلاً ؛ اثر ولاية النقابة واستبشاره بها للوصول الى ما كان يطمع اليه من معالٍ :

وَليَ النقابَةَ خالُ أُمّي قبلُ ثمَّ أبي وجدّي

وَوَلِيتُها طفلاً ، فهل مَجدٌ يعدّدُ مثل مَجدي
وإخالُ نفسي سوفَ تَحملني إلى الأمرِ الأشدِّ
حتى أُرى متملّكاً، شرقَ العُلى والغرب وحدي

هذه الأبيات حاسمة الدلالة على عتوِّ الشاعر وتطلعه الى الخلافة ، الا ان هذه الغلالة من التفاؤل ، لا تعتم ان تغشاها سُحُب السويداء ويعجز الشاعر عن مواجهة نفسه واحلامه ، فيلتوي عُنُق امانيه ، ويحنُّ الى أصقاع بعيدة عنه ، الى مصر . وقد يُخيَّل الينا ان حنين الشاعر الى مصر ليس سوى حيلة من حيل التهديد يراود بها الخليفة ، لكي يستدرَّ المناصب والألقاب ، الا انها في الواقع ، أعمق دلالة من ذلك ، لأنها تطلعنا على عزوف الشاعر عن واقعه في بغداد ونبذه له ، وأن احلامه اذ استحالت في بغداد ، تقمّصتْ وشرعت بالنموّ من جديد في مصر . فهو يقول :

ما مُقَامِي على الهَوَان وعندي
مِقْولٌ صارِمٌ ، وانْفٌ حَمِيُّ
واباءٌ محلّقٌ بي عن الضيم كَمَا راغَ طائرٌ وَحْشِيُّ
البَسُ الذُلَّ في ديار الأعادي
وبمصر الخليفةُ العلويُّ
من ابوه ابي ومولاه مولاي اذا ضامني البعيد القصيُّ
لفَّ عرقه بعرقِه سيّدُ النا س جميعاً ، محمّدٌ وعَلِيُّ

ولقد غضب القادر ، وربمّا ادرك انه اخطأ في اغضائه من

النقابة ، فبعث يستقدم والد الشاعر واخاه وحضر الشريف ايضاً ونفوا هذه الابيات ، وحاول القادر ان يستكتب الشريف طعناً بالنسب الفاطمي فلم يذعن واحتج لذلك بخوفه من عيون الفاطميين في بغداد . والواقع ان الشريف ، إثر موت الطائع ، لم يُقبل على القادر بمحبَّة وصفاء ، واذا ما اضطرَّ لمدحه فانه لم يكن ليداجيَه ، بل يعتو ويتشامخ امامه متخطِّياً بذلك عتوَّ المتنبي ومتجاوزاً عن سائر شعراء المدح في الشعر العربي :

مهلاً اميرَ المُؤمنينَ ، فإنَّنا في دوحةِ العَلْياءِ لا نتفرَّقُ
ما بينَنا ، يوم النخار تفاوتٌ ابداً كلانا، في المعَالي، مُعرِقُ
إلا الخلافةَ ،ميَّزتْكَ فانَّني انا عاطل منهاوانْتَ مطوَّقُ

ولقد اجاب الخليفة على هذه الابيات بقوله : « على رغم انف الشريف » . وهذه الاحقاد كانت تتراكم في نفس الخليفة ، بالاضافة الى الشاعر وما عمَّ الشريف ان سئم مطاردة السراب والأماني ، وتحول بشعره الى نزعة من السويداء التي تذكرنا ببعض اشعار أبي العتاهية :

تميلُ بي الدنيا الى كلِّ شهوَةٍ
وأَين من النَجْم البعيدِ مَنَالُ
أرى كلَّ زادٍ ما خلا سدَّ جوعةٍ
تراباً وكلُّ المـاء عندي آلُ
ومثلي لا يأس علـي يفوتـُه
إذا كان عُقْبى مـا ينالُ زَوالُ

كأنا خُلقنـا عرضةً لمنيَّـةٍ
فنحن إلى داعي المَنُونِ عِجَالُ
نخفُّ على ظهرِ الثَرَى وَبُطونُه
علينا، إذا حل المَمَاتُ ثقالُ
ومـا نوب الأيامِ، الا اسنةٌ
تهاوى الى اعمـارِنا وَنِصَالُ
وانعم منا في الحيـاة بهائم
وأثبت منا في التراب جبـال

اما في النهاية فنراه قد انهار ووقّـع وثيقة مع سائر العلويين، يطعنون فيها بالخليفة الفاطمي، وما عتمت المنية أن عاجلته وهو في الثاني والاربعين من عمره .

واقع فخره

حاولت في الصفحات السابقة، ان استقصي سيرة الشريف، مجاريا تطورها، ومظهر انعكاس ذلك التطوُّر في قصائد الشاعر الفخريَّة . ولقد بدا الشاعر وهو يتردد بمعان متشابهة، مصوراً بها نقمته، وتسخُّطه واحلامه الملحمية، القانية. وتلك الأبيات تمثل، في الواقع، الجانب الاهم من فخره. وفيما يلي نلم بوجه آخر يبدو الشاعر فيه، وقد تجَهَّمت أساريره، واعتراه شعور الاحتضار والتشييج، عندما تشخص في ذهنه مأساة جدّه الحسين. فهو لا ينفك يبكيه ويعول على الغدر به، مقيماً له في شعره، مناحة دائمة. وفي هذا النوع من الفخر نشاهد السيوف المتحفّزة

الى جانب رايات السواد ، ووصفاً دقيقاً لمأساة الاستشهاد . فهو يقول في ذكرى كربلا :

كَربلا ، لا زلْت كرباً وبلا ما لقي منْك، آل المُصْطفى
كم على تربِك لما صُرِعُوا من دَمٍ سالَ ومن دمعٍ جَرَى

ثم يردف بقوله :

يا قتيلاً قوّض الدهرُ به عمد الدين وأعلام الهُدى
قتلوه بعد علم منهم انه خامس أصحاب الكسا
غسلوه بدم الطعن ، وما كفّنوه غير بوغاء الثرَى
مرهقاً يدعو ولا غوث له بأب برٍّ ، وجدٍّ مصطفَى
وبأمٍّ رفع الله لها علماً ما بين نسوان الوَرَى
اي جدٍّ وأب يدعوُهما جدُّ يا جدُّ اغثني يا أبا
يا رسول الله يا فاطمة يا امير المؤمنينَ المُرتضى
كيف لم يستعجل الله لهم بانقلاب الارض أو رجم السما

والشاعر يكاد لايدع مناسبة دينيةحتى يستثير هذه الفاجعة، معبراً بها عن حسرته الدائمة. ولئن كانت القصيدة السابقة اقرب الى الرثاء منها الى الفخر ، فهي بالرغم من ذلك ، تدلنا على واقع الشاعر ، ومدى تحسُّره وتفجعه على اجداده ، تلك الحسرة التي تعقدت والتبست في نفسه ، واودت فيها حساً دائماً بالنقمة والوتر ، وشعوراً راغماً ، مبهماً بعدم الرضا والنكد . لهذا فهو يكاد لا يرسم هذا المشهد، حتى ينفجر باللعنات ، متوعداً هاجياً، مفتخراً . فهو يقول في يوم عاشوراء :

لله ملقى على الرمضاء عضّ به
فمُ الرَدَى بعد إقدام وتشمير
تحنو عليه الربى ظلّا وتستره
عن النواظر اذيالُ الأعاصير
تهابه الوحش ان تدنُ لمصرعه
وقد أقام ثلاثاً غير مقبور

ثم يردف مفاخراً :

بني امية ما الاسيافُ نائمةٌ
عن ساهر في اقاصي الارض موتور
والبارقات تلوّي في مغامدها
والسابقات تمطّى في المَضَامير
اني لارقب يوماً لاخفاءَ له
عريانَ ، يقلقُ منه كلُّ مَغرورِ
وللصوارم ، ما شاءت مضاربُها
من الرقاب ، شرابُ غير منزورِ
يا جدُّ لا زال لي همٌّ يحرِّضُني
على الدموعِ ، ووجد غيرُ مقهور
والدمع تحفزهُ عينٌ مؤرَّقة
حفزَ الحنيّةِ عن نزع وتوتيرِ
ان السلوّ لمحظورٌ على كَبِدي
وما السلوُّ على قلب بمحظورِ

وهذه القصيدة لا تختلف عن سائر قصائده ، في التوثّب

والنقمة . ولقد خطر الشاعر فيها ببيت عميق الدلالة ، رائع الاسلوب الفني . وذلك بقوله :

إني لارقبُ يوماً لا خفاءَ له
عَرْيان يقْلَقُ منه كلُّ مغْرورِ

فهو يتحدث عن اليوم العريان في لحظة نفسية خطفت خطفاً طيَّ وجدانه . ولقد اشار باليوم العريان الى نفسه التي تظهر فيه على حقيقتها ، منفجرة بكل ما تستتر به من حقد ونقمة وشهوة للثأر . ولعل أجمل قصائده في هذا الصدد هي القصيدة التالية :

أيُّ يومٍ أدمى المدامِعَ فيه
حادثٌ رائعٌ وخطبٌ جليل ؟
يومُ عاشُوراءَ الذي لا أعان
الصَحبُ فيه ، ولا أجار القبيلُ [١]
يا ابنَ بنتِ الرسول ، ضيّعتِ العَهدَ
رجالٌ والحافظونَ قليلُ
ما أطاعوا النبيَّ فيك ، وقد
مالت بأرماحِهم اليكَ الذُحُولُ [٢]
وأحالوا على المَقاديرِ في حربكَ
لو أنَّ عُذرَهم مقبولُ

---

١ ـ القبيل الجماعة .

٢ ـ الذحول : جمع ذحل ، وهو الثأر او طلب مكافأة بجناية ، او العداوة والحقد .

واستقالوا من بعد ما أجلبُوا
فيها ، ألَلآنَ ايّها المستقيل[1]
إنّ أمراً قنّعتَ ، من دونه ، السيفَ ،
لِمَن حازه لمرعى وَبيلُ[2]
يا حُساماً ، فلَّت مضاربُه الهَامَ ،
وقد فلّه الحسامُ الصقيلُ !
يا جَوَاداً ، أدمَى الجيادَ من الطعنِ ،
وولّى ونَحرُه مبلولُ !
حجّلَ الخيلَ من دماءِ الأعادي ،
يومَ يبدو طَعنٌ ، وتَخفى حجُولُ[3]
يومَ طاحت أيدي السوابقِ في النَقعِ ،
وفاضَ الوَنى ، وغاضَ الصَهيلُ
أتراني ألذُّ ماءً ، ولمّا
يروَ ، من مُهجةِ الامامِ ، الغَليلُ ؟!
أم تراني أُعيرُ وجهيَ صَوناً ،
وعلى وجهه تجولُ الخيولُ ؟ !
قبّلته الرماحُ ، وانتضلت فيه
المنايا ، وعانقته النُصولُ[4]

---

١ ــ اجلبوا : تجمعوا من كل وجه للحرب .
٢ ــ قنعت بالسيف : غطي رأسك به ، اي ضرب به .
٣ ــ حجل : خضب . الحجول : البياض في قوائم الفرس .
٤ ــ انتضلت : افتخرت .

والسبايا ، على النجائبِ ، تُستاقُ ،
وقد نالتِ الجيُــوبَ الذيولُ [1]

من قلوبٍ يَدمَى بها ناظِرُ الوَجــدِ ،
ومن أدمُـــعٍ مَراها الهُمُولُ [2]

قد سُلبنَ القِناعَ عن كلِّ وجـــهٍ
فيه للصَونِ من قِناعٍ بَديـــلُ

وتَنقّبْنَ بالأنامـــلِ ، والدمـــعُ
على كلِّ ذي نِقَـــابٍ دليـــلُ [3]

وتشاكَيْنَ ، والشَكاةُ بُـــكاءٌ ،
وتنـــادَينَ ، والنداءُ عَويـــلُ ،

لا يَغِيبُ الحادي العَجُولُ ، ولا
يَفتُر عن رنّــةِ العَديلِ ، العديلُ [4]

يا غـريبَ الديار ، صبري غريبٌ ،
وقتيلَ الأعـــداءِ ، نومي قتيلُ !

بي نِزاعٌ يطفى اليـكَ ، وشوقٌ ،
وغـرامٌ ، وزفرةٌ ، وغَليـــلُ

---

١ ـ نالت الجيوب الذيول : اي مزقت اطواق القمصان فصارت ذيولا .
٢ ـ مراها : استدرها . الهمول : فيض الدمع .
٣ ـ تنقبن : تسترن . ذي نقاب : اي وجه .
٤ ـ لا يغيب : اي لا يتأنى ولا يترك العجلة . العديل : اي المرأة التي تعادل رفيقتها في المحمل على ظهر البعير .

ليتَ أني ضَجيعُ قبرِك ، أو أنَّ
ثَـــراهُ بـــدمعي مَطـــلولُ!

لا أغَـبّ الطـُفوف ، في كلّ يومٍ ،
من طِراقِ الأنواء ، َغيثٌ هَطولُ ! [١]

مطـَرٌ ناعِمٌ ، وريـحٌ شَمَـــالٌ ،
ونَـسيمٌ غَضّ ، وظِلّ ظليـــلُ !

يا بني أحمـــدٍ الى كم سِنـاني
غائبٌ ، من طِعــانه ممطُولُ ؟

وجيادي مربوطـــةٌ والمطايـــا
ومُقامي يروع عنه الدخيـــلُ ؟ [٢]

كم ، الى كم تعلو الطـُغاةُ ، وكم يحكمُ
في كل فـــاضلٍ مفضولُ ؟

قـــد أذاعَ الغليلَ قلبي ، ولكن
غـيرُ بَدعٍ انِ استطبّ العَليلُ !

---

١ ـ أغبه : جاءه يوماً وتركه يوماً . الطفوف : جمع الطف ، وهو شاطيء الفرات ، وما ارتفع من جانبيه ، وهو الموضع الذي قتل فيه الحسين . طراق الانواء : مطابقتها في الغروب والشروق. والانواء جمع النوء : وهو سقوط نجم في المغرب مع الفجر ، وطلوع آخر يقابله من ســـاعته في المشرق ، وهم يضيفون الامطار والرياح الى الساقط او الى الطالع منها .

٢ ـ يروع : يرجع .

لیتَ أني ابقَى ، فأمتَرِقَ النـاسَ ،
وفي الكفِّ صـارمٌ مسلولُ ! [1]

وأُجرَّ القَنـا لثَـاراتِ يومِ
الطَـفِّ يَستلحِقُ الرَعِيـلَ الرَعيلُ

صَبَغَ القلبَ حبُّكم صِبغَةَ الشيبِ ،
وشيبي ، لولا الرَدى ، لا يَحُـولُ

أنا مولاكُمُ ، وإن كنتُ منـكم ،
والدي حَيـدَرٌ ، وامي البتولُ [2]

وإذا النـاسُ أدركوا غاية الفخر ،
شآهم من قال : جَدّي الرسولُ ! [3]

يفرَح النـاسُ بي لأنيَ فضلٌ ،
والأنامُ الذي اراهُ فُضُـولُ

فهمُ بين مُنشدٍ ، مـا أُقـفى ،
سروراً ، وسامـعٍ مـا اقولُ

ليتَ شعري مَن لائمي في مقالٍ ،
تَرتضيـه خواطِرٌ وعقولُ ؟

---

١ ـ امترق : اخترق .

٢ ـ حيدر : اسد ، واسم لعلي بن ابي طالب . البتول : لقب فاطمة بنت النبي .

٣ ـ شاهم : سبقهم .

اترُكِ الشيءَ ، عـــاذري فيه كلُّ
الناسِ ،من اجلِ ان لحَاني عَذُولُ ؟

هو سُؤلي ، إن اسعَدَ اللهُ جَدّي ،
ومَعـــالي الأمور للذِمْرِ سُولُ [1]

وهكذا ، يتحقق لنا ان فخر الشريف كان نوعاً من التعوض الذاتي ، وتفجيراً لما كان يتأكَّل في نفسه من احقاد استحالت فتحولت الى ثورة مكبوتة عبر الالفاظ . ونحن لا نشهد في هذا الفخر التعقيد الذي شهدناه في فخر المتنبي ، لان الشريف بالرغم من المامه بشتى الثقافات الدينية ، لم يكن لديه التوغل الثقافي الذي كان في شعر ابي الطيب .ويخيَّل الينا ان فخـــر الشريف كان في الغالب ، نسخة منقولة عن فخر المتنبي . فهو يقول .

لأي حبيب يحسن الرأي والودُّ
واكثر هذا الناس ليس له عهدُ

اكلّ قريبٍ لي بعيـــدٍ بودّه
وكل صديق بين اضلعـه حقدُ

تغرّب لا مستحقبــاً غير قوتِه
ولا قائلاً الا لما يهب المجـــدُ

ولا خائفاً الا جريرة رمحــه
ولا طالباً الا الذي تطلب الأسد

وهذه الابيات منقولة عن فخر المتنبي في معانيها بالإضافة

---

١ ــ الذمر : الشجاع .

الى صيغ العبارة ، مما يدلنا على ان الشريف وقع تحت وطأة ابي الطيب كسائر شعراء عصره ، وانه لم يكد يتحرر منه ، إلا عندما كان يتحدث عن واقعه الوجداني الخاص اذ تتولاه الحرقة على اجداده . وكذلك في قصائده الاخيرة يخيل الينا انه وجد اسلوبه الخاص وتعفّت في شعره ملامح شعر المتنبي ، وان ظلت نفسية الشاعرين متشابهتين في عدم الرضا والنقمة على الدهر والمصير ، وتوترهما بنقمة غامضة دائمة وتوقعهما لطارىء غريب يمهد لهما سبل النجاح وتحقيق طموحهما .

قصائد شتى

لاميَّة السموأل

إذا المَرْءُ لم يَدنَسْ مِنَ اللُّؤمِ عِرْضُهُ،
فكُلُّ رِداءٍ يَرتَدِيهِ جَميلُ.
وإن هوَ لم يَحمِلْ على النَّفسِ ضَيْمَها،
فليس إلى حُسْنِ الثَّناءِ سَبيلُ.
تُعَيِّرُنا أنَّا قَليلٌ عديدُنا؛
فقُلتُ لها: إنَّ الكِرامَ قَليلُ!
وما قلَّ مَنْ كانَتْ بَقاياهُ مِثْلَنا:
شَبابٌ تَسامى لِلعُلَى، وكُهُولُ،
وما ضرَّنا أنَّا قَليلٌ، وجارُنا
عَزيزٌ، وجارُ الأكْثَرِينَ ذَليلُ.
لنا جَبَلٌ يَحْتَلُّهُ مَنْ نُجيرُهُ،
مَنيعٌ، يَرُدُّ الطَّرْفَ، وهو كَليلُ،

رَسا أصْلُهُ تَحْتَ الثَّرَى ، وَسَما بِهِ
إلى النَّجْمِ فَرْعٌ لا يُنالُ ، طَوِيلُ ؛
هُو الأبْلَقُ الفَرْدُ الّذي شاعَ ذِكْرُهُ ،
يَعِزُّ على مَنْ رامَهُ ، ويَطُولُ .
وإنّا لَقَوْمٌ لا نَرَى القَتْلَ سُبَّةً ،
إذا ما رَأتْهُ عامِرٌ ، وَسَلُولُ ؛
يُقَرِّبُ حُبُّ المَوْتِ آجالَنا لَنا ،
وتَكْرَهُهُ آجالُهُمْ ، فَتَطُولُ .
وما ماتَ مِنّا سَيِّدٌ ، حَتْفَ أنْفِهِ ،
ولا طُلَّ يَوْماً ، حَيْثُ كانَ قَتِيلُ .
تَسِيلُ على حَدِّ الظُّباتِ نُفُوسُنا ،
ولَيْسَتْ على غَيْرِ الظُّباتِ تَسِيلُ .
صَفَوْنا ولَمْ نَكْدُرْ ؛ وأخْلَصَ سِرَّنا
إناثٌ أطابَتْ حَمْلَنا ، وفُحُولُ .
عَلَوْنا إلى خَيْرِ الظُّهورِ ، وحَطَّنا
لِوَقْتٍ ، إلى خَيْرِ البُطُونِ ، نُزُولُ .
فَنَحْنُ كَماءِ المُزْنِ ، ما في نصابِنا
كَهامٌ ، ولا فِينا يُعَدُّ بَخِيلُ .
وَنُنْكِرُ ، إن شِئْنا ، على النّاسِ قَوْلَهُمْ ؛
ولا يُنْكِرُونَ القَوْلَ ، حِينَ نَقُولُ .

إذا سَيِّدٌ مِنَّا خَلا قامَ سَيِّدٌ
قَؤُولٌ لِمَا قالَ الكِرامُ ، فَعُولُ .

وما أُخْمِدتْ نارٌ لَنا ، دونَ طارِقٍ !
وَلا ذمَّنا ، في النَّازِلينَ ، نَزِيلُ .

وأيَّامُنا مَشْهُورَةٌ في عَدُوِّنا ،
لَهَا غُرَرٌ مَعْلُومَةٌ ، وَحُجُولُ .

وأَسْيافُنا ، في كُلِّ شَرْقٍ ومَغْرِبٍ ،
بِها مِنْ قِراعِ الدَّارِعِينَ ، فُلُولُ .

مُعَوَّدَةٌ أَنْ لا تُسَلَّ نِصالُها
فَتُغْمَدَ ، حَتَّى يُسْتَبَاحَ قَبِيلُ .

سَلِي ، إنْ جَهِلْتِ النَّاسَ ، عَنَّا وَعَنْهُمُ ؛
فَلَيسَ سَواءً عالِمٌ وَجَهولُ !

فإنَّ بَنِي الرَّيَّانِ قُطْبٌ لِقَومِهِمْ ،
تَدُورُ رَحاهُمْ حَولَهُمْ ، وَتَجُولُ .

من مفاخر ابي تمـــام

أنا ابنُ الذينَ استُرضعَ الجـودُ فيهمِ
وُسمِّيَ فيهم وهـــو كهلٌ ويافعُ

سما بيَ أوسٌ في السماحِ وحـاتمٌ
وزيـــدُ القنا والأثرمانِ ونافعُ

وكان إياسٌ ما اياسٌ وعـــارفٌ
وحـارثةٌ اوفى الورى والأصابعُ

نجومٌ طواليعٌ جبالٌ فوارعٌ غيوثٌ هواميعٌ سيولٌ دوافعُ
مضوا وكأنَّ المكرماتلديهم لكثرة ما اوصوا بهنَّ شرائعُ

فأيُّ يدٍ في المحلِ مُدَّت فـلم يكن
لها راحـــةٌ من جودهم وأصابعُ

هُمُ استودعوا المعروفَ محفوظَ مالنا
فضاع وما ضاعت لدينـا الودائعُ

بهاليلُ لو عـاينتَ فيضَ اكفـّهم
لأيقنتَ انالرزق في الارضواسعُ

اذا خفقت بالبذلِ ارواحُ جـــودِهم
حداها الندى واستنشقتهــا المطامعُ

رياحٌ كريحِ العنبرِ الغضّ في النَدى
ولكنّهـــا يومَ اللقاءِ زعـــازعُ

إذا طيّءٌ لم تطوِ منشورَ بـــأسها
فأنفُ الذي يُهدي لها السُخطَ جادعُ

هيَ السُمُّ مـــا تنفكُّ في كلِّ بلدةٍ
تسيلُ بهِ ارمـاُحهم وهو ناقـــعُ

اصارت لهم ارضَ العدوِّ قطائعـــاً
نفوسٌ لحدِّ المُرهَفـاتِ قطـــائعُ

بكلِّ فتىً ما شابَ من روعِ وقعةٍ
ولكنهُ قد شبنَ منهُ الوقـــائعُ

اذا ما أغاروا فاحتووا مالَ معشرٍ
أغارت عليهم فـاحتوتهُ الصنائعُ

فتُعطي الذي تُعطيهم الخيل والقنا
أكفٌ لإرثِ المكرمـــاتِ موانعُ

هُمُ قوّموا دَرْءَ الشآمِ وأيقظوا
بنجدٍ عيونَ الحربِ وهي هواجعُ

يمدُّون بالبيض القواطعِ أيديـاً
وهنَّ سواءٌ والسيوفُ القواطـــعُ

إذا أَسرُوا لم يأسِر البغي عفوهم
ولم يمسِ عانٍ فيهمِ وهو كانعُ
اذا اطلقوا عنهُ جوامعَ غُلّهِ تيقَّن أنَّ المنَّ ايضاً جوامع
وان صارعوا عن مفخرٍ قام دونَهم
وخلفَهم بالجدِّ جدٌ مصارعُ

علوا بجنوبٍ موحدات كأنها
جنوبٌ قبول ما لهنَّ مضاجعُ
فكم شاعرٍ قد رامني فقذعتُهُ
بشعري فأمسى وهو خزيانُ ضارعُ
كشفتُ قناعَ الشعرِ عن حُرٍّ وجههِ
فطيرتُهُ عن فِكرهِ وهو واقعُ
بعزٍّ يراها من يراها بسمعهِ ويدنو اليها ذو الحجىوهوشاسع
تودُّ وداداً أن اعضاء جسمهِ اذا أُنشدت شوقاً اليها المسامعُ

شكوى وفخر لابن المعتز

وَقفتُ بالرّوضِ ،ابكي فقدَ مُشبِهِهِ ،
حتى بكَت ، بدموعي ، أعينُ الزّهرِ ،
لو لم تُعِرها جفوني الدّمعَ تسفحُهُ
لرحمتي ، لاستعارتهُ منَ المطرِ .
فمن لباكيةِ الاجفانِ ، سائلةٍ ،
ظلَّت ، بلا فِكر ، تبكي من الفكرِ ،

حتى إذا الليلُ أرخى سِترَ ظُلمتِه ،
وساعدَ أجفانَها جَفني على السَّهرِ .
لا تزدري ، يا ابنةَ الأقوامِ ، ذا كرَمٍ ،
إن رَثَّ ثوباه ، واستعصى على النظرِ ،
إن تبلَ جِدَّةُ ثوبيهِ ، فبينَهما
سيفٌ يفرِّق بين الهامِ والقَصَر

وله ايضاً

ما أنسَ لا أنسَ ، إذ قامت تُودّعُنا
بمُقلةٍ ، جَفنُها ، في دمعِها ، غَرِقُ ،
تَفترُّ عن مُقلةٍ حمراءَ ، موقَدةٍ ،
تكادُ ، لولا دموعُ العَينِ ، تحترقُ .
كأنها ، حين تبدو في مجاسدِها ،
بدرٌ تَمزَّقَ ، في أركانِه ، الغسقُ .
وفِتيةٍ كسيوفِ الهندِ ، قلتُ لهم :
سيروا ، فما أخطأوا قولي وما فرَقوا ،
ساروا ، وقد خضعت شمسُ الاصيلِ لهم ،
حتى توقَّدَ ، في ثوب الدُّجى ، الشَّفقُ ،
لحاجة ، لم أُضاجِع دونَها وسَناً ؛
وربَّما جابَ أسبابَ الكَرى الارقُ .
لا أشربُ الماءَ إلاّ وهو مُنجرِدٌ
من القَذى ، ولغيري الشَّوبُ والرَّنَقُ ؛

ألا في سبيل المجد ، لأبي العلاء

ألا في سَبيلِ المجدِ ما أنا فاعلُ :
عفافٌ ، وإقدامٌ ، وحَزمٌ ، ونائِلُ !

أعندي ، وقد مارستُ كلَّ خفيَّةٍ ،
يُصدَّقُ واشٍ ، أو يخيَّبُ سائلُ ؟

أقلُّ صدودي أنني لكَ مبغضٌ ؛
وأيسر هجري أنني عنكَ راحِلُ

إذا هبَّتِ النَّكباءُ ، بيني وبينَكم ،
فأهونُ شيءٍ ما تقولُ العواذِلُ .

تُعَدُّ ذُنوبي ، عندَ قومٍ كثيرةً ،
ولا ذنبَ لي إلاَّ العُلى والفضائِلُ .

كأنِّي ، إذا طُلتُ الزمانَ وأهلَهُ ،
رَجعتُ ، وعنْدي للانامِ طوائِلُ ؛

وقد سارَ ذكري في البلادِ ، فمن لهم
بإخفاءِ شمسٍ ، ضوءُها متكامِلُ ؛

يهمُّ الليالي بعضُ ما أنا مُضمِرٌ ؛
ويثقِلُ رَضوى دُونَ ما أنا حاملُ ؛

وإني وإن كنتُ الأخيرَ زمانُهُ ،
لآتٍ بما لم تستَطعهُ الأوائِلُ .

وأغدو ، ولو أنَّ الصباحَ صوارِمٌ ؛
وأُسري ، ولو أنَّ الظلام جَحافِلُ ؛

وإني جَوادٌ لم يُحَلَّ لِجامُهُ ،
ونَصلٌ يمانٍ أغفلته الصَّياقِلُ ؛

فإن كانَ في لُبسِ الفتى شرفٌ لهُ ،
فما السَّيفُ إلّا غِمدُهُ والحمائِلُ .

ولي مَنطِقٌ لم يَرضَ لي كُنهَ منزلي ،
على أنني بَينَ السِّماكينِ نازلُ ،

لدى موْطِنٍ يشتاقُهُ كلُّ سيدٍ ،
ويَقصرُ عن إدراكِهِ المتناوِلُ .

ولما رأيتُ الجهلَ ، في النّاسِ فاشياً ،
تجاهلتُ ، حتّى ظُنَّ أنيَ جاهلُ .

فواعجَبا ! كم يدّعي الفضلَ ناقِصٌ ،
ووا أسفاً ! كم يُظهرُ النّقصَ فاضلُ .

وكيفَ تنامُ الطّيرُ في وُكُناتِها ،
وقد نُصِبَت للفرقَدينِ الحبائِلُ ؟

يُنافسُ يومي فيَّ أمسي تشرُّفاً ،
وتحسُدُ أسحاري عليَّ الأصائلُ ؛

وطال اعترافي بالزمانِ وصرفهِ ،
فلستُ أُبالي مَن تغُولُ الغوائِلُ ؛

فلو بانَ عضْدي ما تأسَّف منكبي ،
ولو مات زَندي ما بَكتهُ الأنامِلُ .

اذا وَصفَ الطائيَّ بِالبُخلِ مادِرٌ
وَعيَّرَ قُسّاً بالفَهاهِةِ باقِلُ ،

وقالَ السُّهى للشَّمسِ : انت ضئيلةٌ
وقال الدُّجى للصبح : لونُكَ حائِلُ ،

وطاوَلت الارضُ السَّماء سفاهةً ،
وفاخرت الشهبَ الحصى والجنادلُ ،

فيا موتُ زُر ، إن الحياةَ ذميمةٌ ،
ويا نفسُ جِدّي ، إن دهرَكِ هازلُ !

سؤدد الفرس ودين العرب لمهيار الديلمي :

أُعجِبَت بي ، بين نادي قومِها | أمُّ سعدٍ ، فمضَت تسألُ بي ؛
سرَّها ما علمت من خُلُقي | فأرادت علمَها ما حسَبي ؟
لا تخالي نسباً يخفِضُني ، | أنا من يُرضيكِ عندَ النَسبِ !
قومي استولوا على الدّهرِ فتى ، | ومشَوا فوقَ رؤوسِ الحِقَبِ ،
عمّموا بالشّمسِ هاماتِهمُ ، | وبنَوا أبياتَهم بالشُهُبِ .
وأبي كِسرى على إيوانِه ؛ | اينَ في النّاسِ ، أبٌ مثلُ أبي؟
سورةُ الملكِ القدامى ، وعلى | شرفِ الاسلامِ لي ، والادب ،
قد قبستُ المجد من خير أبٍ ، | وقبستُ الدّين من خير نبي ،
وضمَمتُ الفخر من أطرافه : | سؤدُد الفرس ودين العرب .

لأمية العجم للطغرائي

أصالة الرّأيِ ، صانَتني عَن الخطلِ
وحِليةُ الفضلِ ،زانتني لَدى العَطلِ

مَجدي أخيراً ، ومجدي أوّلاً ، شَرَعٌ
والشمسُ رأدَ الضُّحى كالشمس في الطفلِ

فيمَ الإقامةُ بالزوراء ، لا سكَنَي
بها ، ولا ناقتي فيها ، ولا جَمَلي ؟

ناءٍ عنِ الأهلِ صَفرُ الكفِّ مُنفَردٌ
كالسَّيفِ عُرِّيَ مَتناهُ مِن الخلَلِ

فلا صَديقٌ إليــهِ مُشتكى حزني
ولا أنيسٌ اليــهِ مُنتهى جَذَلي

أريدُ بسطَةَ كفٍّ أستعينُ بهــا
على قضاء حقوقٍ للعــلى ، قبلي

والدّهرُ يَعكِسُ آمالي ، ويُقنعُني
من الغنيمةِ بعــدَ الكدِّ ، بالقَفَلِ

حُبُّ السلامَةِ يَثني همَّ صاحبِهِ
عَن المعالي ويُغري المرءَ بالكَسَلِ
فإن جَنَحتَ اليهِ ، فاتَّخِذ نفقاً
في الأرضِ أو سُلَّماً في الجوِّ فاعتزلِ
ودَعْ غمارَ العُلى للمُقدمينَ على
رُكوبها ، واقتنِع مِنهُنَّ بالبلَلِ
فادرأ بها في نحورِ البيدِ حافِلة
مُعارضاتٍ مَثاني اللُّجمِ بالجُدُلِ
إنَّ العُلى حدَّثتني ، وهيَ صادقةٌ
فيما تُحدِّثُ : أنَّ العزَّ في النُّقَلِ
لو أنَّ في شَرَف المأوى بُلوغَ مُنىً
لم تبرح الشمسُ ، يوماً ، دارة الحَمَلِ
أعدى عَدُوِّكَ أدنى مَن وثِقت بهِ ،
فحاذِرِ النَّاس، واصحَبهم على دَخَلِ؛
وإنما رَجُلُ الدُّنيا ، وواحِدُها ،
مَن لا يُعولُ ، في الدُّنيا ، على رُجلِ
غاضَ الوَفاءُ، وفاض الغَدرُ، وانفرجت
مَسافَةُ الخُلف بَينَ القَولِ والعَمَلِ ؛
وحُسنُ ظَنكَ بالأيامِ مَعجَزَةٌ ،
فظُنُّ شَرًّا وكُن مِنها على وَجَلِ .

وشانَ صِدقَكَ، عِندَ النَّاسِ، كذبُهُمُ؛
وهل يُطابَقُ مُعوَجٌّ بمُعتَدِلِ ؟

إن كانَ يَنجَعُ شيءٌ في ثباتِهِمُ
على العُهودِ، فسَبَقُ السَّيفِ للعَذَلِ.

يا وارِداً سُورَ عيشٍ، كلّهُ كدَرٌ،
أنفقتَ عمرَكَ في أيامِكَ الأولِ!

فيمَ اعتراضُكَ لُجَّ البحرِ تركبهُ،
وأنتَ يَكفيكَ مِنهُ مَصةُ الوَشَلِ؟

ملكُ القناعةِ لا يُخشى عليهِ، ولا
يَحتاجُ فيهِ إلى الانصارِ والخَوَلِ.

ترجو البقاءَ بدارٍ لا ثباتَ لها؛
فهل سِمعتَ بظلٍ غيرِ مُنتقلِ؟

ويا خبيراً، على الأسرارِ مُطلعاً،
أنصِت، ففي الصمتِ مَنجاةٌ من الزَّللِ

قد رشّحوكَ لأمرٍ، ان فطنتَ له،
فاربأ بنفسكَ أن ترعى مع الهمَلِ

أهبتُ بالحَظِّ، لو ناديتُ مُستمِعاً،
والحَظُّ عنيَ، بالجُهّالِ، في شُغُلِ،

لعلّهُ إن بدا فضلي ونَقصُهُمُ،
لعَينِهِ، نامَ عنهُم، أو تَنبَّهَ لي.

أُعلّلُ النفسَ بالآمالِ أرقُبُها ؛
ماأضيَقَ العَيشَ لولا ُفسحةُ الأملِ !

لم أرتضِ العَيش ، والأيَّامُ مُقبِلةٌ
فكَيفَ أرضى، وقد ولَّت على عَجلِ ؟

غالى بنَفسي عِرفاني بقيمتِها ،
فصُنتُها عن رَخيصِ القَدر، مبتذلِ ؛

وعادةُ النَّصلِ أن يَزْهو بجَوهرِهِ ،
وليس يَعمَل إلاّ في يَدي بَطَلِ .

ما كنتُ أُوثرُ أن يَمتَد بي زَمَني ،
حتى أرى دولة الأوغاد والسَّفلِ !

تقدَّمتني أُناسٌ ، كان شوْطهمُ
وراءَ خطويِ ، إذا أمشي على مَهلِ ؛

هذا جزاءُ امرىءَ أقرانُهُ درجوا ،
من قبله ، فتمنى ُفسحة الأجل !

وإن علانيَ من دوني ، فلا عجبٌ !
لي أُسوةٌ بانحطاط الشمس عن زحل !

فاصبر لها َغير ُمحتال، ولا ضجر ؛
في حادث الدهر ما ُيغني عن الحيَل؛

من قصيدة لسعيد عقل

بعيداً على شاطيء الذات في خاطر الغيهب
حوالي مطلّ الوجود ، في عبق طيِّب
شددت يد الحلم ، وهو على المهد ، بعد ، غبي

***

انا ابن لبنان ، ابن الوجود ، وعي الخليقة بي
انا جبت ذاتي وافرعت اغنيَّة المطلب
وصمت المساء يلفُّ الوجود ، وقبر الابي
انا ثروة كالكآبة عمقاً و كالغيهب
غنيٌ ... أحس الوجود غباراً على ملعبي

***

يقولون : قافلة على الغرب .. لم تغلب
تشيد في الفتح ، أبعد من فتحك الخلَّب
لها فسحة الارض مرمى وناصية الكوكب
قل الفتح غمسك في الذات ورشفك نفسك رشف العتيق من المشرب

فهرس

	صفحة
المقدمة : علاقة الفخر بالهجاء	٥
الفخر في شعر الشنفري	١٠
الفخر في شعر عنترة	١٤
لماذا لم تنشأ الملاحم في الشعر العربي	٢٨
الفخر الوجودي في شعر طرفة	٣١
نموذج من الفخر الملحمي في الشعر الجاهلي	
معلقة عمرو بن كلثوم	٤٨
الفخر في الشعر الاسلامي	٦٦
الفخر في النقائض	٦٩
الفخر في شعر الأخطل	٧٠
الفخر بين جرير والفرزدق	٨٠
الفرزدق وفخره	٨٥
واقع الفخر في الشعر العباسي	٩٩
الفخر في شعر ابي الطيب المتنبي	١٠٤
الفخر في شعر أبي فراس	١٣٩
الفخر في شعر الشريف الرضي	١٥٦
قصائد شتى	١٧٥

الفنون الأدبية عند العرب

سلسلة جديدة تتناول الأدب العربي ، وتقسمه بحسب فنونه ، مستوفية الكلام في كل فن على حدة من نشأته حتى اليوم .

وهي طريقة استقرائية حديثة اتبعت في البيئات الجامعية أولاً ، ثم شاعت بين الدارسين ، واصبحت داخلة في صلب المنهج المدرسي في لبنان مثلاً . وان دراسة الفنون وفق هذه الطريقة تفيد اكبر الفائدة إذ تتيح لنا أن نتتبع ظواهر نشأة كل فن ومراحل تطوره بحسب تسلسله في الزمان وتنقله في المكان ، كما تمكننا بطريقة جمعها للنماذج التي دارت حول فن ما من فنون الأدب أن نتصل بالنصوص ونتعرف طريقة معاناتها فندرك نقط الالتقاء ونقط التباعد بين أديب وأديب وشاعر وشاعر . فضلاً عن فوائد أخرى كثيرة أهمها معرفة ما إذا كان الأدب العربي قد استوفى الفنون الادبية المعروفة عند الغربيين أم قصر عنها ...



منشورات دار الشرق الجديد - بيروت

الثمن ليرتان لبنانيتان